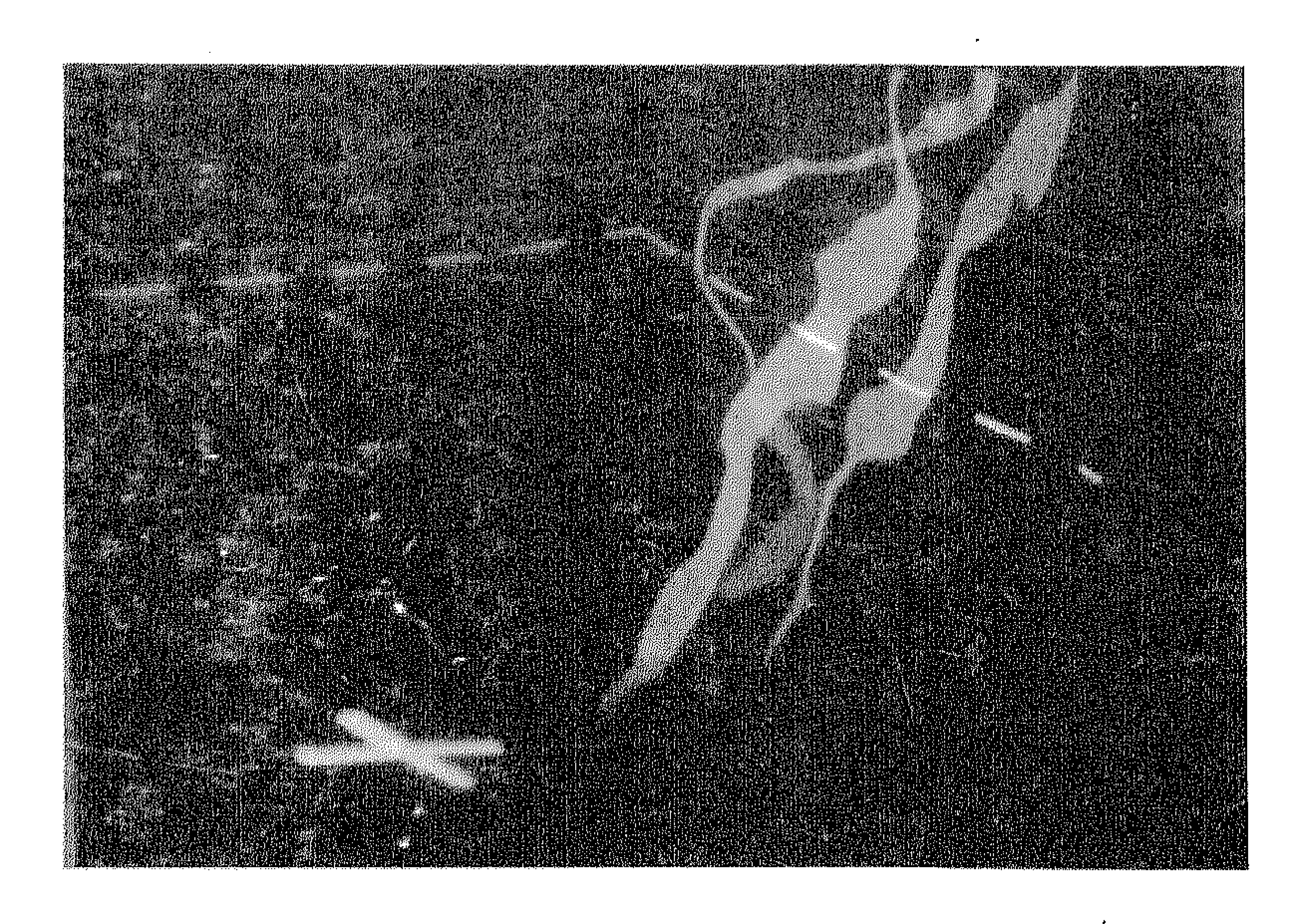
ألیخاندرو کاسونا



لوحات مرحة

قصص للفتيان

ترجمة

علي إبراهيم أشقر

الإشراف الفني: زهير الحمو

إهــــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

أليخاندرو كاسونا

لوحات مرحة

قصص للفتيان

ترجمة
علي إبراهيم أشقر

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب:

ALEJANDRO

CASONA

OBRAS

COMPLETAS

Prólogo de

FEDERICO CARLOS SAINZ DE ROBLES

لوحات مرحة: قصص للفتيان = Obras Completas/
أليخاندرو كاسونا؛ ترجمة علي أبراهيم أشقر. -
دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩. - ١٦٧ص؛ ٢٠سم. -

١- ٨٦٢ س ك ا س ل ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- كاسونا ٥- أشقر

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٢٤٥٢/ ١٢/ ١٩٩٩

ملاحظة توضيحية

بقلم المؤلف

افتتح معلم المعلمين مانويل ب كوسيّو عام ١٩٣١ فصلاً نموذجياً في الثقافة الشعبية في إسبانية، بإنشائه مديرية المهام التربوية؛ ولا مجال هنا لذكر المغزى الاجتماعي الواضح والعميق لذلك المشروع. لكن، نعم، سأذكر مظهراً من مظاهره، وهو السبب الأول لهذه الهزليات والباعث عليها، ألا وهو «مسرح الشعب». كان مسرحاً جوالاً جاب بالتوازي مع مسرح «لاباراّكا» لغارثيّا لوركا الخريطة الريفية لشبه الجزيرة الإيبرية، ناقلاً متعة الفن إلى أقصى المناطق الريفية.

مسرح البعثات الطلابي نظير عربة أنغولو ديمالو التي ملأت بضوضائها الجميلة صفحات كاملة من الدون كيخوته، كان فرقة متجولّة بدائية ومرحة تفتقر إلى الديكور وتعمل بشكل سليم صحيح في الهواء الطلق. وما كان بالإمكان أن تكون بشكل آخر، لأنها مؤلفة من الطلاب وموجّهة إلى

جمهور دون تعليم. أما الكوميديا والدراما سواء بممثليهما أم بجمهورهما، فهما جنسان متطوّران جداً وأعلى من مستواه.

لكن الهزلية والحكاية - المثل، والخرافة، هي على العكس من ذلك، تعبّر تعبيراً طبيعياً عنه بتمثيلها العنيف وطعمها القابض، مثلها مثل الرومنس الجماعي و«الطقطوقة» والأغنية الجبلية في الموسيقى.

خوان ديل إنثينا ولوبّه ديرويدا، وثربانتس في الإنترميس[1]، وكالدرون في الهزليات القصيرة والأغاني الشعبية، و رامون ديلا كروث و موليير العالمي واللذيذ تشكل قائمة مؤلّفيهم المفضّلين. ولا يظنّن أحد أن هدف فرق البعثات الطلابية، نظراً لعظمة هذه الأسماء، كان تمثيل أعمال ذات مستوى ثقافي رفيع. بل ابتعدت عن كل محاولة لإعادة البناء التاريخي، وغسلت أيديها غسلاً تاماً من كل حذلقة كتابية. فإن كانت تلجأ إلى حمى هذه الأسماء اللامعة، فلأن مواضيعهم ذات بساطة معجبة ومعجزة، ونضارة دائمة متجدّدة. «نحن لا نصنع شيئاً إلا أن نعيد للشعب ما أُخذ من الشعب»، كان يقول كوسيّو. فلو به الإشبيلي، وثربانتس و موليير كانوا الضاربين

(١) مسرحية فكاهية قصيرة من فصل واحد كانت تمثل قديماً أثناء الاستراحة بين الفصول. ثربانتس كان أبرع من كتب في هذا الفن. (المترجم)

الفنيّين لهذه العملة الرائجة داخل سكتها الشرعية، في كل زمان ومكان .

خلال السنوات الخمس التي كان لي فيها حظّ قيادة تلك العصبة الطلاّبية الشابة، زرنا أكثر من ثلاثمائة قرية في قطر دائرة يمتدّ من سنْبريا حتى مانتشا، ومن آراغون حتى إيسترامادورا . دائرة نقطة مركزها تقع في القفر القشتالي . قرى رأتنا نصل حتى عقر دورها وساحاتها وأفنيتها، و ننصب خشباتنا في الهواء الطلق، ونمثل ما أعددناه بعناية إزاء دهشة أهالي القرية . وإذا كنت أفخر بعمل جميل قمت به في حياتي، فقد كان ذلك العمل . وإذا كنت تعلّمت شيئاً من المسرح وعن الشعب، فهناك تعلمته . ثلاثمائة تمثيلية يقودها (كادر) طلابي وأمام جمهور ذي معرفة وانفعال ولغة بدائية هي تجربة معلّمة .

وهناك تحققت مرة أخرى من أن المؤلفين الكوميديين العالميين الكبار يمكن أن يمتعوا بنبل، جمهوراً ريفياً، وربما بعمق أكثر مما يمتعون جمهوراً مثقفاً، فما هو عند هؤلاء الآخرين استعدادٌ مسبق خاضع لسحر رجل معين وسُمْعته، هو عند أولئك التصاق تلقائي بالموضوع الخصب والتعبير المرح، بهذا المزيج من الشرف الأصيل والخبث الذي هو عادة فيهم . العمل

هنا يحيا باستقلال تام عن مؤلفه، ويكتسب حياة أقوى من حياته، على عكس ما يجري في مسارح المدن. كثير من فلاّحينا لم يسمعوا أبداً باسم ثربانتس لكن أحداً منهم لا يجهل اسم سانشو، ولا شكله ولا مغزاه.

بالتأكيد، هذا ليس اكتشافاً. فلطالما سمعت لما كنت صبياً فلاحي استورياس يحكون قصة ظريفة عن شمّاس في كنيسة يقبّل أردافاً بدلاً من الوجنات من خلال فتحة لقطط في المطبخ، أو سخرية المومس المختبئة عن العشيق تحت ملاءة متظاهرة أنها الزوج، أو الأغنية المنحلّة التي تحكي عن جنائني يعمل في دير للراهبات. ولما قرأتها في الكتب بعدئذ، وجدت أنها تحويرات بسيطة محلية لأعمال أدبية هامة. أولاها قصة الطحان، وهي أحدى «قصص كنتربري». والثانية«العجوز الغيور» لثربانتس. والثالثة «القصة ٤١» لبوكاشيو. وهذه الأعمال كلها مستوحاةبدورها من الفولكلور والتراث القديم. لم أدهش إذاً، لما اختلطت بجمهور مسرحنا الريفي للاستماع إلى تعليقاته، فسمعت ناساً يستبقون الحلّ النهائي لتمثيلية من إحدى حكايات الكونت لوكانور. وهم ناس ليس لديهم أدنى فكرة، إن كان وُجد في إسبانية أمير باسم الأمير

خوان مانويل، مولع قبل المركيز «بالقصص التي تحكيها العجائز عند النار». حقاً، ما كنا نصنع شيئاً إلا أن نعيد للشعب ما أخذ من الشعب، إما بطريق الإبداع أو السيطرة التقليدية .

قال لي، ذات يوم، المعلم كوسيّو : «ينبغي لك أن تعدّ لفرقتنا المسرحية المتجولة، بعضَ الفصول من الدون كيخوته . » وكتب أنطونيو ماتشادو[1]، مدير البعثات أو المهام التربوية، بصواب : «لتكنْ أحكام سانشو . فهي تحوي إضافة إإلى الخبث والظرف، هذا الحسّ الطبيعي بالعدالة التي لاتنفصل عن الضمير الشعبي » . (لم يُحسّ أحد إحساس ماتشادو بالقيمة الفنية العظمى للأشياء التي تأتي من الشعب أو التي لها القوة الكافية لتعود إليه . فقد قال على لسان ما يرينا ذات مرة بصريح العبارة : «في أدبنا كل ما ليس فولكلوراً يعدّ حذلقة») .

تلقيت إشارة الشاعر على أنها أمر . وبعد أسبوع واحد كنا نقرأ معاً فصل سانشو بانثا في الجزيرة، فضُمّ فوراً إلى قائمة التمثيليات المتنقّلة . وبالطريقة نفسها انتقلت إلى المسرح الحكاية

---

(١) «١٨٧٥ - ١٩٣٩» من كبار الشعراء الإسبان في هذا القرن . امتاز شعره بالبساطة والعمق، والإلحاح على الأمور الوجدانية والأحاسيس الداخلية، بعيداً عن الزخارف اللفظية . (المترجم) .

الخامسة والثلاثون من «الكونت لوكانور[٢]» وهي البذرة التي انبثقت منها «ترويض الشرسة» لشكسبير. هذا هو الأصل القريب للهزليّتين الأوليّتين، والأصل البعيد للثلاث الأخريات التي كتبتُها في الأراضي الأمريكية، لكنها كانت خاضعة للدافع الأولّي ذاته.

في الهزليات الثلاث التي جاءت من أعمال أدبية ناضجة لكتاب كبار أمثال ثربانتس وخوان مانويل و بوكاشيو، اقتصر عملي على البحث إلى أقصى مدى عن معادل درامي للحكاية دون تغيير ملحوظ في الأسطورة أو في الشخوص، ناقلاً اللغة والنغمة الأصليتين إلى الحوار المسرحي، وقد جدُّدتا بشكل خفي.

أما المواضيع التي استُمِدّتْ من التراث الشفوي ووصلتني بكامل فقرها الحواري، (أسطورة السر المحفوظ جيداً، وعدالة الحاكم) فقد لجأت إلى كل المجازات الفنية

(٢) هذان العملان مثلهما طلاب البعثات مئات المرات في القرى الإسبانية وتبنّتهما فيما بعد مسارح جامعية وخاصة في أمريكة. فصل سانشو مُثل على المسارح الكبرى في بوينوس آيريس بمناسبة الذكرى ٤٠٠ لولادة ثربانتس، التي احتفل بها الفنانون الأسبان. (المؤلف).

المتاحة، وأقمتُ فوق أرضية حكايةٍ خصبة بالإيحاءات خشبة مسرحي الخاصة. فالبناء المسرحي، و إبداع الشخوص ونمذجتها وتركيب المواقف و حلّها حوارياً، كلّ ذلك، خُطّ وكُتب في منتهى الحرية. أما بالنسبة للغة التي كُسيت بها، فما كنت بحاجة إلى إضافة شيء سوى أن أهرب عن وعيٍ من كل صرامة فيلولوجية راضياً بفرح كل اعوجاج مثير جميل، وكل ما هو مُفوّت مقبول، دون زعم آخر إلا المساهمة في نضج المجموع وجماله.

اسطورة السرّ جاءت من قصة شعبية إيطالية أعرف مضمونها فقط، وأجهل إن كانت قد طُوِّرت أدبياً. أما قصة الحاكم فقد وصلتني أول مرة على صورة حكاية[1] شرقية التقطت من شوارع القاهرة، وأشاعها في المدارس الإسبانية الأخ الصديق (إيرمينيو آلميندروس) في كتابه (شعوب وأساطير). وقد وجدت هذه القصة جزئياً في ترجمة قديمة (على الطريقة الإسبانية) في كتاب: (مجمع الخرافات)، لتيمونيدا، (الخرافة السادسة) التي ضمّت قضيّتين من القضايا

(١) هو ما يعرف عندنا بأحكام قراقوش. (المترجم)

اللتين بتّت فيهما العدالة الفلاحية بطريقة عجيبة، وهما قضيّتا المرأة الحامل و ذيل الحمار. هذه الحادثة الأخيرة، ربما وضعها ثربانتس نصب عينيه في سرده الحلو عن ذيل الحمار، (هات الذيل، أيها الأستوري)، في قصة الخادمة ذات الأصل النبيل.

باختصار، تُعدّ الهزليات الثلاث الأولى نقلاً أميناً من جنس أدبي إلى جنس آخر[٢]. أما الأخريان فهما إعادة خلق شخصي بحرية تامّة. هذي هي حدود إسهاماتي و مسؤوليتي

أخيراً، أدرك جيداً أن هذه الأعمال لا تصلح أن تُوجّه إلى جديّة المسرح المحترف، سواء بسذاجة مواضيعها وبدائيتها، أم بتمثيلها المرح الخام الذي يحمل تُقْل السوق،

---

(٢) للناقد الإسباني ف. كارلوس روبليس رأي آخر: (.. أرى أن هذا تواضعاً جماً من كاسونا. صحيح أنه أخذ بأمانة التعابير نفسها، ملتقطاً جملاً كاملة، وأحياناً أجزاء تامة من الحوار. لكن ينبغي لنا ألا ننسى اللمسة العبقرية المتقنة، والفن الرفيع الذي لابدّ «للمعد» من أن يمتلكه من أجل إتمام ما نسميه عملية «الرفو». وهو هذه القطع من نسيج المؤلف، التي تربط بين قطع من نسيج مؤلف آخر. فمن الضروري ألا تتنافر في مجموع العمل الفني السعيد. وأرى أن القطع التي أضافها كاسونا تندغم حتى الإتقان والكمال مع القطع الكبيرة المأخوذة من مؤلفين مُخلّدين، فلا يلفت انتباه المشاهدين شيءٌ إلى مكان الرفو الماهر. وإنما يرون العمل بكلّيته، ويعجبون به على أنه عمل صائغ حقيقي، لغناه وجودته. (من المقدمة للأعمال الكاملة.)

وتخلّع الهزلية، و مكر الفلاح و جلافته. فإذا حظيت باهتمام أحد، فسوف تحظى باهتمام الفرق الطلابية الشابة دائماً داخل كتبها. أو الجمهور الريفي البعيد عن الثقافة الأدبية الذي يحتفظ دائماً ببسمة خضراء وسط حكمته الناضجة المديدة

إليهم أهدي هذه اللوحات المرحة.

ألیخاندرو كاسونا

سانشو بانثا في الجزيرة

(خلاصة مسرحية لبعض الصفحات من الدون كيخوته.)

الشخوص

سانشو	عجوز ذو عكّاز
القهرمان	عجوز دون عكاز
الدكتور	الظريف
الكاتب	متسكّعة محتالة
الخياط	تاجر ماشية
الفلاح	خادمان

حراس - مساعدوطباخين - صعاليك - شعب بَرَتاريا

قاعة العدالة في قصر سانشو - منصّة و مقعد فوقه قبّة حمراء تُقرأ فيها العبارة التالية: «تَسلّمَ اليوم مقاليد حكم جزيرة بَرَتاريا السيد دون سانشو بانثا، متّعه الله به سنين طوالاً.»

يُطل الكاتب من نافذة كبيرة و يتأمّل الساحة حيث تُسمع هتافات، وطبول ومزامير و قرع أجراس.

يدخل القهرمان

قهرمان: أوصل السيد الحاكم ؟

الكاتب: في هذه اللحظة، دخل الساحة يحيط به الحشم والخدم. وها هو الشعب يهتف له، والحراس يقدّمون له السلاح، والعمدة يقبّل يديه. (تتوقّف الموسيقى. يُسمع صوت نهيق طويل.)

قهرمان: ما أظرف شكل حاكمنا مع حماره!

الكاتب: أنا مازلت دَهِشاً. قل لي، بحياتك: ماذا يعني هذكله؟ أيُعقَل أن يكون سيدنا الدوق والدوقة قد اختارا حاكماً علينا هذا التافه ذا (الجزمة) والخرج، وعليه ملامح فلاّح لم يحلقْ لحيته منذ أسبوعين؟

قهرمان: أرسله إلينا الدوقان بالفعل. لكن، عليك أن تعلم أن

كلّ ذلك ماهو إلا فكاهة كبيرة. هذا الحاكم الذي وصل للتوّ إنْ هو إلا سانشو الكبير والفلاح البسيط الفارغ الذهن.

الكاتب: أهو مرافق ذلك المجنون العجيب المسمّى دون كيخوته ديلامانتشا؟

قهرمان: هو هو بعينه. يبدو أن المدعوّ دون كيخوته قد وعد تابعه بحكم جزيرة. كما أرى، لايبدو أكثر تعقّلاً من سيده. وقد نزلا كلاهما ضيفين على الدوقين في قصرهما. فلم يرَ هذان تسلية خيراً من أن يوهما سانشو أنّ هذا المكان هو الجزيرة الموعودة، ويدعاه يحكمها لبضعة أيام ليشاهدا إلى أين تصل به السذاجة، مزيّنَيْن له أن يقيم العدل فيها ويقطن قصراً كما يفعل السادة.

الكاتب: إذاً، كلّ هؤلاء الذين يحتفون به، مطّلعون على السر؟

قهرمان: بعضهم مطلع، وبعضهم غير مطّلع. وعدم اطلاع البعض يجعل لهذه الهزلية مظاهر أقرب إلى الحقيقة. تصرّف معه بتهذيب، وسجّل أقواله المأثورة وأفعاله، لنقلها إلى السيدة الدوقة التي تأمل أن تجد

قنطارين من الضحك في هذه المغامرة التي لم يُر مثلها أبداً .

الكاتب : اسكت ، ها قد وصل حاكمنا . (يُسمع الهتاف والموسيقى من جديد . جنديان مسلّحان يقفان في عتبة الباب . يدخل سانشو بزيّه الفلاحي ، يتبعه الدكتور والخدم و شعب برتاريا . يتقدّم القهرمان ، ويركع على الأرض و يقدّم له المفاتيح على وسادة صغيرة .)

قهرمان : هذه مفاتيح مدينتنا ، يا سيدي ، نسلّمها لقلبك النبيل و ذراعك الكريم ، واضعين أملنا فيك .

سانشو : إذاً ، أنا حاكم ؟

قهرمان : بفضل الله وفضل السيدين الدوقين ، أنت حاكم منذ هذه اللحظة .

سانشو : وأستطيع أن آمر ؟

قهرمان : إننا نتحرّق شوقاً لإطاعتك بإخلاص .

سانشو : من أنت؟

قهرمان : قهرمان هذا القصر ، بالإذن منك . (نهيق جديد) .

سانشو : إذاً ، آمرك أولاً ، أيها السيّد القهرمان : اهتمّ بهذا

الأغبر الذي حملني، اهتمامك بأخي شقيقي.

قهرمان: إلى أيّ أغبر تشير؟

سانشو: جحشي! سمّيته أغبر بلون وبره كيلا أخدج حياءكم بهذا الاسم التافه.

قهرمان: (متأبّياً.) أو يبدو لك أني الرجل المناسب للاهتمام بجحشك؟

سانشو: على مهلك سيدي القهرمان، ولا تعجل بالاستياء منّي. اعلمْ: لو كانت امرأتي تيريسا بانثا هنا، كيف كنتم تتعاملون معها؟

قهرمان: كما ينبغي لسيدة، لأنها زوج الحاكم.

سانشو: هذا عين الصواب. ولو كانت ابنتي سانشيتا بانثا هنا، كيف يكون اهتمامكم و عنايتكم بها؟

قهرمان: كما يجب علينا. لأنها ابنة السيد الحاكم.

سانشو: إذاً، اعلموا أن هذا الجحش صديقي المخلص، ورفيق دربي وشريك تعبي، و نور عيني وحبّة قلبي؛ عاملوه، إذاً، بكلّ الاحترام الواجب لجحاش الحكاّم. واعلموا أنه ليس أول حمار يتلقّى تكريماً لأشياء ليست له.

قهرمان : لكن، يا سيّد. . .

سانشو : ولا كلمة أخرى. قضى الحاكم بذلك، وكفى. وكل خطيب على منبره فصيح. أمام من يملك الأمور، سكوت ثم سكوت. وبين ضرسين طاحنين لاتدخل أصبعيك. واترك مالايعنيك تجدْ مايغنيك. انتهى القول. اهتمّ بحماري !

قهرمان : كما تأمر يا سيدي. (للدكتور.) اهتم بحمار السيد الحاكم !

الدكتور : (للكاتب.) اهتم بحمار السيد الحاكم !

الكاتب : (للخادم.) اهتم بحمار السيد الحاكم !

الخادم : (من الباب.) اهتموا بحمار السيد الحاكم. (يتكّرر الأمر في الخارج مبتعداً في تسلسل تنازلي صارم. سانشو الذي تابع انتقال الأوامر بدهشة، يعلّق).

سانشو : وأنت، من أنت ؟

الكاتب : أنا كاتب هذه الجزيرة، بخدمتك.

سانشو : أتعرف القراءة والكتابة ؟

الكاتب : كيف لا ، إذا كنت كاتباً ؟

سانشو : لايفزعك السؤال . أنا أكبر من كاتب ، ومع ذلك ، لا أعرف القراءة ، ولم أتعلّم من الكتابة ، إلا التوقيع بأحرف كبيرة تشبه الحروف المرسومة على صندوق ويقال إنها ترسم اسمي . حسن ، أيها الكاتب : ماذا تقول هذه الرسوم الموجودة هناك ؟

الكاتب : مكتوب ، ومسجّل فيها استلام سيادتك الحكم . وتقول اللوحة هكذا : «تسلّم اليوم مقاليدحكم جزيرة برتاريا السيد "دون" سانشو بانثا ، متعه الله به سنين طويلة . »

سانشو : (ينظر فيما حوله .) مَنْ يُدعى هنا "دون"[1] سانشو بانثا؟

الكاتب : أنت ذاتك يا سيدي . لم يدخل هذه الجزيرة أحد بهذا الاسم غير سيادتك .

سانشو : إذاً ، اعلم أيها الأخ : أنا لست "دوناً" ولا أحد من عائلتي يحمل هذا اللقب . أنا سانشو بانثو مجرداً من كل شيء . وسانشو كان أبي . وسانشو كان جدّي .

---

(١) لقب يوضع قبل الاسم الأول ، ومؤنثه دونيا .

وكلهم كانوا بانثا و بفخر كبير دون إضافة من " دون " و " دونيا " . أنا من سلالة فلاحين أنحدر و لن أخجل من ذلك أبداً. هذه نصيحة قالها لي سيدي ومعلمي دون كيخوته . ومن كانت ساقه قصيرة فلايحتاج إلى غطاء طويل . ولا يقل أحدٌ حَسبي و فصلي أبداً، لأن الدم يورّث، لكنّ الفضيلة لابد من اكتسابها . والفضيلة بذاتها خير من الدم بذاته . وفوق ذلك، حين ننام، كلنا سواء : الأغنياء والفقراء، الكبار والصغار . وبعد الموت، ينزل الفلاح و الأسقف في حفرة حقيرة متساوية من الأرض . وبالتالي : الثياب لاتجعل من المرء راهباً . وتحت ثياب عتيقة، قد تجد شرِّيفاً كبيراً . ولا أزيد .

الدكتور : عافاك الله ! كل ما قلته في مكانه الصحيح . لكن، لا يُستحسن أن يسرد الحاكم أمثالاً كثيرة، هي من عادات العامّة وليس السادة العلماء .

سانشو : و من أنت، أيهـا العـالِم؟ و من طلب رأيك في الموضوع؟

الدكتور : أنا دكتور، طوع أمرك، ومجاز من جامعة أوسونا .

سانشو : إذاً، استخدم شهادتك من جامعة أوسونا، و خلِّني استخدم أمثالي، فهي كل ما عندي من العلم. لا يتطاول أحد على حاكمه، لأن العين لا تعلو على الحاجب. و سخافات الغنيّ تصبح حكماً عند الجمهور. ولا تناطحوا الصخر. فسواء اصطدمت الجرّة بالحجر، أم اصطدم الحجر بالجرّة، فالويل ثم الويل للجرّة. قلت مايكفي. و الآن، أعدّوا طعام الغداء لحاكمكم. وليكن غزيراً جزيلاً. فقد سرت سبعة فراسخ دون أن أذوق لقمة واحدة. فخبز و خمر أقوى على قطع الطريق من شاب ممتليء قوي.

قهرمان : معذرة، يا سيدي. يجب عليك أولاً، إقامة العدالة. فلم تحنْ ساعة الغداء بعد. وعندنا هنا خصوم ينتظرون.

سانشو : أهم كثيرون ؟

قهرمان : ثلاثة أو أربعة فقط.

سانشو : فليدخلوا. و لتمطر عليّ دعاوى. فإذا لم يعرقل عملي أحد باللاتينية أو صُرر الأوراق، فسوف أفصل فيها خيراً من سليمان نفسه.

قهرمان : ها هي عصا العدالة . لكن ، عليك قبل أن تُمسك بها ، أن تفيَ بعادة قديمة من عادات هذه الأرض .

سانشو : ليكن ذلك . احترام العادات من واجب الحكام الصالحين . ما هي ؟

قهرمان : العادة تقضي بأن كل من يتسلم الحكم في هذه الجزيرة المشهورة مضطر أولاً إلى الإجابة عن سؤال معقد قليلاً ، وصعب . من هذا الجواب ، يلمس الشعب ذكاء الحاكم الجديد . فإما أن يفرح وإما أن يحزن .

سانشو : هات السؤال ، إذاً . سأجيب عنه بخير ما أعرف دون أن أحيد عن حق أو أميل إلى باطل . فإذا لم أوفّق ، فلا لوم عليّ بعد أن بذلت جهدي . هاتِ السؤال .

قهرمان : القضيّة يا سيدي ، هي كالتالي : عند مدخل هذه المدينة جسر . وفي منتصف الجسر مشنقة . وقد أُمِر أن يُسأل كل من يمر فوق الجسر : إلى أين ذاهب؟ فإذا قال الصدق ، سُمح له بالمرور . و إذا قال كذباً ، يُشنق في المكان نفسه . حسن! وصل الجسر هذا الصباح ، رجل . ولما سأله الحرس إلى أين ذاهب ، أجاب : «جئت

لأموت على هذه المشنقة» . وهنا الخطورة، يا سيدي الحاكم . إذْ لاتوجد طريقة لتطبيق القانون . فلو تُرك طليقاً، معنى ذلك أنه تُرك طليقاً رغم قوله كذباً . وإذا شُنق، فيكون شُنق رغم قوله الحقيقة . ما هو حكمك؟

سانشو : (يحكّ رأسه وهو ينفخ .) على مهل، على مهل! قاضٍ لايستعلم جيداً، لا يُصدر حكماً صائباً . القانون يقضي أنّ من يقول الحقيقة يترك حراً طليقاً، ومن ينطق كذباًيُشنق؟

قهرمان : وهو كذلك .

سانشو : وهذا الرجل، عند سؤاله : «إلى أين ذاهب؟» أجاب : «لأموت على هذه المشنقة . »

الكاتب : وهو كذلك أيضاً .

سانشو : إذاً، إذا تُرك حراً، يُخرق القانون لأنه قال كذباً، وإذا شُنق خُرق القانون أيضاً لأنه قال الصدق .

الدكتور : هذا صحيح .

سانشو : أهذي هي العقدة كلها؟ والله، إمّا أن أكون غبياً، أو أنّ هذه القضيّة تُحلّ بكلمتين اثنتين . فإذا كانت لاتوجد طريقة لشنق نصف إنسان وإبقاء النصف الآخر حراً

طليقاً، وإذا كانت كفّتا الميزان متساويتين بين العفو عنه وإدانته للأسباب نفسها، وإذا كان الوفاء بالقانون لايتم بإدانته ولا بالعفو عنه، فلا مجال لخرق القانون هنا. بالتالي: اعفوا عن هذا الرجل. وإذا كان لابد لعصا العدالة من أن تميل إلى هذا الجانب أو ذاك، فليكن إلى جانب الرحمة وليس إلى جهة العقاب. هذا هو حكمي.

قهرمان: أسمعتم يا سادة؟

الشعب: ليحفظ الله حاكمنا!

قهرمان: أمْسك بعصا العدالة، إذاً. فإذا كانت كل أحكامك مثل هذا الحكم، فنحن مطمئنون إلى أننا والبلد في يد أمينة.

سانشو: اترك عصا العدالة هنا. فسوف يجيء وقت استعمالها. هيّا بنا إلى الطعام يا سادة. فلا رأسي يستطيع حمل كل هذه الأفكار، ولا معدتي تصبر على الجوع.

الدكتور: مازال عليك الانتظار، ياسيدي. المتخاصمون ينتظرون.

سانشو: هذه عـادة سـيـئـة أن تُحـضـر الدعـاوي وقت الغداء. لكن، في النهاية، من أراد أكل الحلوة، فلابد له من الصبر على المُرّة. وإذا كنتَ جـمـالاً، فعلِّ باب بيـتك. وحين يُشـرق الصبـاح، يشـرق على الناس جـمـيـعـاً. فليـدخل هؤلاء الناس. (يخرج أحـد الخـدم ليصدر أوامره).

قهرمان: ضع شـارات منصـبك، يا سـيـدي. (يسـاعـده أحـد الخدم، ويزنرّه بحفاوة بزنار فاخر ذي حلية كزنار رهبان سيبيلس. ويضع على رأسه قبّعة مـخمليـة عليها ريش وطوق من ذهب. يمسك سـانشـو بالعـصـا، ويصـعـد المنصة بجلال. أثناء ذلك يتحاور الدكتور والكاتب.)

الدكتور: ماذا تقول عن حاكمنا الجديد؟

الكاتب: لاتبدو عليه ملامح الغباء، ولن أكون ممّن يعترض عليه. سُمّي حاكمـاً للسخرية منه. لكنه، إذا ظلّ على هذا الدأب، فسـوف تنقلب الفكاهة جِداً، ويصـبح الهـازئون مُهـزّئين. (يمضي الكاتب إلى مكتبه ليسجل الأحكام. يدخل الفـلاح حـامـلاً خـرجـاً، والخـيّاط معطفاً ومقصاً مُعلقاً في خصره. يدخل أثرهماعجوزان ذوا لحيتين، أحدهما يحمل عُكازاً ثخيناًويظلاّن في قاع

المسرح ينتظران دورهما .)

الخياط : (ناظراً إلى الجميع .) مَنِ السيد الحاكم؟

سانشو : من سيكون؟ ألا ترى عصا العدالة هنا؟ (يُهرع الاثنان إلى قدميه ، ويتنازعان حقّ الكلام .)

الخياط : مدّ يديك العادلتين لأقبّلهما !

الفلاح : مد يديك وقدميك !

سانشو : لا أقدام ولا أيد ولا قبلات . خلّونا في المهم . و دون خداع . ماهي قضيّتكما؟

الخياط : أنصفني من هذا المدّعي الكذّاب !

الفلاح : أنصفني من هذا الخياط السرّاق !

الخياط : أأنا سراق؟

الفلاح : أأنا كذاب؟

سانشو : اسكتا كلاكما . لم تُسرجا فرسيكما ، وها أنتما تصولان . أأستطيع أن أرى بوضوح قضيّة تعرضانها عليّ بهذا التشويش؟ فليتكلّمْ كلّ على حدة .

الخياط : أنا المدّعي .

سانشو : إذاً ، تعال إلى هذا الجانب . وظلّ أنت في الجانب

الآخر . وليكلمني المدعي في هذي الأذن . وسيتكلم الآخر لما أدعوه . (يميل إلى هذا الجانب، جاعلاً يده على شكل حلزون، ويضعها على الأذن المقابة للمتكلم) .

الخياط : أنا يا سيدي ، خياط . وإن تكن مهنتي ذات سمعة سيئة مثلها مثل كل المهن الأخرى . بالأمس ، كنت في محلّي لما وصل هذا الفلاح وسلّمني شبرين من القماش وسألني : «أيكفي هذا القماش لصنع قبّعة واحدة؟ »وقست القماش وقلت له : يكفي . وإذ كان لنا ـ نحن الخياطين ـ هذه السمعة الرديئة باقتطاع جزء من القماش مأكُلة لنا ، سألني الرجل مرة أخرى : «قل لي ، ألا يكفي القماش لصنع قبّعتين؟ »وفهمت قصده . لكنه لم يذكر شيئاً عن حجم القبّعة ، فأجبت بنعم أيضاً . لكن الثعلب الماكر راح يفكر ، وسألني مرة ثالثة : «ألا يكفي لثلاث؟» «نعم ، يمكن أن يصنع منه ثلاث قبّعات . »وأخيراً ، ظلّ يزيد في عدد القبعات ، ورحت أنا أزيد في الموافقات ، إلى أن اتفقنا على صنع خمس قبعات . وبداله ذلك كافياً ؛ ولما أنجزتها ، هاج وماج ، ولم يرغب في أن يدفع لي الأجر فحسب ،

وأنما يطلب أن أعوّضه أو أعيد إليه القماش. هذا هو كل شيء.

سانشو: (يضع يده الأخرى على الأذن الثانية بشكل استعراضي). أصحيح ماقاله، يا أخ؟

الفلاح: صحيح.

سانشو: أصحيح أنه صنعها بالقماش الذي قدّمته له، وليس بقماش آخر؟

الفلاح: صحيح أيضاً. لكنه لم يذكر لي شيئاً عن الحجم. أتعلم ما صنعه، ياسيدي؟اعرضها، اعرضها على العدالة!

الخياط: (يخرج يده من تحت المعطف، وعلى طرف كل أصبع من أصابعه قبّعة حمراء.)هاهي القبعات الخمس واحدة واحدة. وأقسم بالله، لم يفضل من القماش شيء، وأنّ القبعات قُصّت وخيطت حسب الأصول.

الفلاح: أليس هذا غشّاً ياسيدي الحاكم؟

الخياط: هو لم يذكر لي شيئاً عن الحجم. وماذا كان يظنّ هذا التيس، أن أصنع له بشبرين صغيرين من القماش؟

سانشو: كفى! الدعوة واضحة جداً. ولاحاجة هنا إلى مزيد من القوانين ولا لكثير من التفكير. لاأحد منهما على

من القوانين ولا لكثير من التفكير. لا أحد منهما على حقّ، لأنهما كليهما عملا بنيّة سيئة. وعلى ذلك، يخسر الفلاح قماشه، ويفقد الخياط أجره، وتظلّ القبعات هنا عظة وعبرة للمتخاصمين. وانصرفا بسلام. فلاينبغي للحكام أن يضيعوا وقتهم بسخافات قضايا المحتالين والخبثاء. انقلعا فوراً! (يرفع العصا مهدّداً. يهرع المختصمان وهما يتعثّران.) أتوجد دعوى أخرى؟

الدكتور: دعوى هذين العجوزين. وهي دعوى مالية. (يتقدّم الاثنان.)

سانشو: ليتكلّم المدعي.

عجوز دون عكاز: القضية يا سيدي، أن جاري هذا طلب مني، منذ فترة، أن أقرضه عشرة إسكودات. فقدمتها إليه بإرادة طيبة، وتأخّرت كثيراً في مطالبته بها كيلا يجد نفسه في عُسر كما كان لما اقترضها مني. والآن، أنا بحاجة إليها، وهو ينكر الدين زاعماً أنه أعاد النقود إليّ. لكني لاأذكر.

سانشو: ألديك إثبات، أيها العجوز الطيب؟

عجوز دون عكاز: هذا هو السيّء في الأمر. كنت أعدّه

رجلاً شريفاً، فسلّمته الإسكودات دون توقيع ودون شهود.

سانشو: (للقهرمان.) هل المدّعَى عليه معروف في الجزيرة بحسن الرأي وقوة الإيمان؟

قهرمان: كلاهما على خلق جيد، ياسيدي. ولم نسمع عن أيّ منهما أنه حنث بكلمته.

سانشو: ماذا تريدني أن أصنع إذاً، يا أخ؟ إذا أصرّ هو على أنه ردّ النقود، وأصررت أنت على الإنكار، فلن نخرج بشيء أبداً.

عجوز دون عكاز: أطلب من سيادتك أن تدعوه إلى حلف اليمين رسمياً وعلناً. أنا أعدّه رجلاً مؤمناً، ولا أظنه قادراً على أن يحلف زوراً.

سانشو: ليكن كما تريد. (يقف سانشو ويخرج صليباً.) أمستعدّ للقسم على الصليب المقدّس؟

عجوز ذو عكاز: مستعد. أمسكْ هذا العكاز، ياجاري قليلاً. (يسلّم رفيقه العكاز، ويتقدّم ويضع يده على الصليب.) أقسم بالله تعالى، بأن صديقي الطيّب أقرضني عشرة إسكودات ذهبية. وأقسم على خلاص روحي، بأني رددتها إليه، وسلّمتها له يداً بيد، قسماً

عظماً، رسمياً وعلناً. ولتلعنّي السماء إن كنت كاذباً.

سانشو: تم القسم. أيمكنني أن أصنع لك شيئاً آخر؟

عجوز دون عكاز: لاشيء ياسيدي. زدْ على ذلك، هو مسيحي عجوز ولن يسعى إلى هلاك روحه من أجل عشرة إسكودات. لست أشك في أنه على حق. خذْ عصاك يا أخي، وعُدّ الدين مسدّداً هنا، وأمام الله.

عجوز ذو عكاز: وهوكذلك. (يستلم عكازه.) أيمكنني أن أخرج ياسيد.

سانشو: انتظر قليلاً. (يفكر حائراً ويده على أرنبة انفه. يردّد بصوت مسموع كلمات العجوز وبريق ذكاء يشع من عينيه.) إذاً، قد أعدت إليه النقود... وسلمتها من يدك إلى يده... رسمياً وعلناً؟

عجوز ذو عكاز: هكذا كان.

شانشو: أكان هذا العكاز يُتْعِبك حتى لم تستطع أن تؤدي القسم وهو بيدك؟ أعطنيه فوراً.

عجوز ذو عكاز: ولِمَ ياسيدي؟

سانشو: لأني أشمّ رائحة خدعة هنا. وإذا كانت خدعة، فأقسم أنها داخل العكاز موجودة. (يفحصه باحثاً عن شيء ما. وأخيراً، يفكّ القبضة، ويقلب العكاز على

صينية أحضرها القهرمان، فتسقط منه الإسكودات العشر.)آخا! ألم أقل لك؟ هنا الخديعة! (صيحات دهشة وإعجاب.)خذ نقودك أيها الرجل الطيب. وليُحكم على هذا الآخر لأدائه شهادة زور. لأن من يقول نصف الحقيقة، كمن يكذب سواء بسواء. اختتُمت الدعوى.

قهرمان : كيف يبدو لكم هذا، يا سادة؟

الكاتب : عاش حاكمنا ألف عام!

الشعب : عاش! عاش!

سانشو : دعونا من الصياح والهتاف. إذا كنتم تريدون حقاً وصدقاً أن أعيش، أعطوني شيئاً آكله. فأنا لست من حجر رخام، وأكاد أسقط من الجوع.

قهرمان : هيّا! أحضروا مائدة السيد الحاكم، وليخرج الناس. (يخرج أهالي برتاريا، والمتخاصمون وهم يعلقون على الحدث. وبينما يقوم الخدم بإعداد مائدة غنية بالأطباق، وجلب الأغطية والمناشف، يقترب القهرمان من سانشو الذي وضع عصاه ونزل عن المنصة).

القهرمان : أعترف أن الدهشة لم تفارقني. كيف استطعت

كشف حيلة في غاية الذكاء؟

سانشو : باه! أمر بسيط . دعاوى الغش والخداع أمرها بسيط عندي كالماء . وفوق ذلك ، حكى لي خوري قريتي ذات مرة حادثة مشابهة . وذاكرتي حادّة جداً ، فلا أنسى أي شيء مما أريد تذكّره . وقد لايكون في هذه الجزيرة ذاكرة مثلها . (يقترب أحد الخدم ويركع ، وفي يده إبريق ماء .) أيّ شيطان هذا؟

خادم أول : ماء لتغسل يديك قبل الطعام ، ياسيدي .

سانشو : لم أفعل ذلك في حياتي أبداً . لكن ، لابأس إن كانت تلك عادة أهل الجزيرة . (يغسل رؤوس أصابع يديه .) وإن كنت لاأزال في شكٍّ من أن يكون هذا الماء آخر شيء يعاني منه الحكام على الطعام . (يجلس إلى المائدة . يهرع الخادم الآخر ليضع على صدره مريلة مطرّزة .)أمراول أيضاً؟ لم أتخيّل أبداً أن يكون تناول الطعام صعباً جداً في القصور . (يضع الدكتور نظارته ، ويتأمله شبراً شبراً بصمت مهيب . يمرّ من ورائه وينظر إليه من الجانب الآخر . يجسّ نبضه ، ويفحص لسانه .) إلى أيّة شياطين تنظر أنت؟

الدكتور : إليك ياسيدي ، لأعرف من وجهك مايلائم

معدتك . أنا طبيب هذا البلد ، ولا أسمح لكم بتناول أي شيء يضر بصحتكم الغالية . قدّموا من هذه الفاكهة للسيد الحاكم! (يقدمها أحد الخدم . يتناول سانشو من صينية الفواكه عنقوداً كبيراً من العنب . عند تناول الحبّة الثانية يدقّ الطبيب بعصاه على البلور .) يكفي!

سانشو : كيف يكفي ، إذا كنت لم أبدأ بعد؟

الدكتور : الفاكهة خطرة لأنها رطبة للغاية . وهكذا يُستحسن ألا يؤخذ منها شيء إلا عند بدء الطعام كمرطّب ولتبليل الشفاه فقط . أدخلوا هذه الحجال المتبّلة!

سانشو : أحجال لدينا؟ جاءت في ساعة طيبة . هي ستشفي غليلي خيراً من أية فاكهة . (يرفع الغطاء ويستنشق البخار بلذّة . يبعد كل الصحون المغطّاة ويتناول بأصبعه قطعة . وما كاد يغرز أسنانه فيها حتى سُمعت مرة أخرى دقة العصا المشؤومة .)

الدكتور : كفى!

سانشو : مرة أخرى؟!

الدكتور : هذا طعام يجب تناوله بحذر شديد . لأن أستاذنا أبُقراط ، نور الطبّ وقطبه ، قال في إحدى حكمه ، (يقرأ في ورقة) : «أومنيس ساتوراتيومالا ، بير

ديشيس آوتيم بيسيّما» . يعني : «كل تخمة سيئة ، وأسوؤها التخمة من الحجال . »وماذا في ذلك الصحن الآخر؟

طبّاخ : أرنب مطبوخ؟

الدكتور : أخرجوا هذا الطعام أيضاً . لأن الأرنب طعام «معقد» وعَسِر جداً على المعد الرقيقة .

سانشو : أتقول معدتي رقيقة؟مهلاً! مهلاً! يادكتور . أنا أخشى الجوع أكثر مما أخشى التخمة . ولاتأتني بهذه السخافات . أريد حماراً يحملني وليس حصاناً يُسقطني . وكنت أسمع دائماً أن لامعدة أكبر من الأخرى بشبر ، والمعدة القوية تطحن الحجر . وإمّا لا ، فلايوجد علم نافع . وماينفع الطحال ، قد يضرّ الظهر . النتيجة : انقلع من أمامي . ولنختتم الحفلة على خير . فالرقص يبدأ من البطن . هات هذا الخمر ، ياغلام! (يصب الخادم كأساً . يقف الطبيب معترضاً بينهما .)

الدكتور : أتقول خمر؟ لن يكون مادمت حياً . لأن الخمر يطمس التفكير ، ويرفع الضغط ويطلق أخلاط الجسم الرديئة . أبعد الله الخمر عن شفة حاكمنا!(يعيد الخادم

الخمر إلى الإناء .)

سانشو : وهذا أيضاً؟

الدكتور : هذا ماقاله أبقُراط . هو عالم ياسيدي .

سانشو : أوكان أحمق من قال : «ثوم نيء ، وخمر نقي يفتحان لك باب الأمان» . أو«الخبز والخمر واللحم ، تصنع العظم والدم» . و «على طعام طيّب ، اشرب مرة أو مرتين» . «وعلى الزكام ، اشرب جرّة بالتمام» . هؤلاء ، هؤلاء هم العلماء الذين أريدهم ، وليس دكاترة مثلك ، لشدّة عنايتهم بي سيقضون على حياتي . (رتل من رؤساء الطهاة ، والطباخين ومساعديهم يتقدمون بخطا متّسقة وهم يحملون الصحون والأطباق الشهية . يتشمّمها الدكتور ، ويأخذ برفضها بضربة من عصاه . يدور الرتل تحت نظر سانشو وأنفه ، وتعود الأطباق سليمة لم تُمسّ إلى المطبخ .) ماهذا الصحن ياغلام؟

الغلام : «كراع» بقرة باللفت والبصل .

سانشو : أبصل قلت؟ما أطهر هذه الكلمة وأحبّها !

الدكتور : أخرجوا هذه التفاهة . وهذا الصحن الآخر ؟

طباخ : لحم عجل بالصلصة .

الدكتور : حارّ ومتبّل بالبهار؟ عدوّ لدود «للأسّ الرطب» الذي تكمن فيه الحياة. أرجعوا هذا اللحم، وهذا الصحن أيضاً، والصحن التالي كذلك. أبقي شيء؟

طباخ : خضار بلحم العنز.

الدكتور : أبداً! أعـيـدوا هذه العنز إلى الجبل دون أن تلطّخ أغطية موائدنا. أهناك شيء آخر؟

طباخ : لحم مشكّل، ياسيدي.

سانشو : الحمد والشكر لله! لايستطيع أحد أن يقول لي لا. بتنوّع ألوان اللحم في هذا الطعام، فسوف أعثر على شيء يرضيني ويفيدني.

الدكتور : أبعد الله عنا هذا التفكير الرديء. اتركوا هذا اللحم المشكل إلى القانونيين، وإلى مدراء المدارس، والأعراس والفلاحين، ولنجعل موائد القصور نظيفة منه. فلا يُقدّم فيها إلاّ كل ما هو فاخر فائق. أبعدوا هذه التشكيلة فوراً.

سانشو : (لايزال مسيطراً على نفسه.) إذاً، أتريد أن تقول لي أيها الطبيب اللامع، أي شيء أستطيع أن آكله؟

الدكتور : بعد هذه الفاكهة وأبخرة الحجل التي تناولتها، من المُستحبّ الآن أن تختتم بكأس كبيرة من الماء وقطعة

من السفرجل تساعد على الهضم جيداً .

سانشو : (يستند بظهره إلى الوراء وينظر شزراً كابحاً غضبه .) نصيحة غالية جداً . ما اسمك ياسيد؟

الدكتور : أنا ، ياسيدي الحاكم ، الطبيب دون بدروريثيو دِه آغويرو ، مولود في مكان يدعى تيرتيافويرا ، الذي هو بين كاركويل والمودُبرديل كامبو على يدك اليمنى ، وأحمل شهادة دكتور في الطب من جامعة أوسونا .

سانشو : (ينتع كل كلمة من بين أسنانه نتعا .) إذاً ، ياسيد دون بدرو ريثيو ، يا وجه النحس المولود في تيرتيا فويرا . . . والمجاز من أوسونا . . . انقلع فوراً عن وجهي ، وإلا ، والله ، سآخذ نبوتاً وأنهال به ضرباً بدءاً منك حتى لاأترك طبيباً سليماً في أنحاء الجزيرة كلها . (ينهض وقد احمر وجهه غضباً . يقبض على عصا العدالة .) اخرج من هنا ، يا عدوّ الصحة ، ياجلاّد البلد . اخرج !

القهرمان والكاتب : اهدأ ياسيد ، اهدأ ! (يفرّ الطبيب وقد ضاعت هيبته أمام العصا . يهدّئ القهرمان والكاتب سانشو ويوقفانه .)

سانشو : والآن ، انظر أيها القهرمان ، إن كانت توجد وسيلة ما لآكل شيئاً كما ينبغي . وإلاّ ، خذوا هذا الحكم . لأن

وظيفة لاتطعم، الشيطان أولى بها.

القهرمان: لاتيأس ياسيدي. سأصدر أوامر حاسمة بألا يتكرّر ما حدث هذا اليوم.

سانشو: أنا بحاجة إليها الآن. عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة. ألا يمكن أن تُجلب تلك الحجال مرة أخرى؟

القهرمان: مستحيل، دون إذن الطبيب. دعك من هذه الأطعمة التي ربما سممّها أحد الأعداء المتآمرين.

سانشو: يا عيني! وسموم أيضاً؟ أخذ يتبيّن لي أن الحكم ليس عملاً ممتعاً، كما كنت أتخيله.

القهرمان: ستتناول في الليل رطلاً من العنب، وهو طعام غير ضارّ. استلم العصا مرة أخرى، فلن نعدم قضايا خلال اليوم. (يرفع الخدم المائدة. يعود الكاتب الذي كان خرج خلال المشهد السابق مع شاب يمسك به حارسان من كمّيه. يحتل سانشو مقعده غير راض. يقف الحارسان في العتبة مرة أخرى.)

الكاتب: هذا هو المتهم الأول.

سانشو: ماجرم هذا الفتى؟

الكاتب: لانعلم شيئاً حتى الآن. كما قيل لي، التقى بدورية في إحدى الزواريب. وما إنْ رآها حتى شرع يركض

كالغزال. الخلاصة: إذا كان يفرّ أمام العدالة، فذلك إشارة إلى أنه مجرم لامحالة.

سانشو: خلّوا عنه، سنرى. ماهو جرمك يافتى؟

الشاب الظريف: لاجرم لي، ياسيدي.

سانشو: لماذا فررت إذاً، أمام العدالة؟

الشاب الظريف: لأتجنّب الأسئلة التي تُلقى بغزارة كالمطر.

سانشو: بماذا تتسمّى؟

ش. الظريف: أنا لاأتسمّى، ياسيدي. وإنما سُمّيت.

سانشو: آه! أتتظارف عليّ؟ أوتراني فارغ البال لتلقّي النكات! حذار، ياولد! أحياناً، مايبدو لك صوفاً... أنت تفهمني. إذاً، مزيد من الأحترام! وأجب بأدب عما أسألك عنه. إلى أين كنت ذاهباً لما التقيت بالدورية؟

ش. الظريف: «لأشم الهواء».

سانشو: حسن جداً! وأين يُشم الهواء في هذه الجزيرة.

ش. الظريف: كما في كل الجزر: حيث يهبّ.

سانشو: أتمازحني؟ إذاً، ضع في حسبانك أنني أنا الريح، وأهبّ في صدرك وأقودك إلى السجن فوراً. ياحرس! خذوه لينام هذه الليلة في السجن.

ش . ظ : أأنام في السجن؟ والله لن تجعلني أنام الليلة في السجن ولو لمست السماء.

سانشو : إذاً، أليس لديّ سلطة للقبض عليك؟

ش . ظ : أن تقبض عليّ، نعم. أما أن تجعلني أنام اليوم في السجن، فهذا لاتقدر عليه لاأنت ولاعشرون حاكماً مثلك.

سانشو : قل لي أيها اللعين، ألديك ملاك يخرجك من وراء القضبان حيث أفكرّ في أن ألقي بك؟

ش . ظ : لنناقش الأمر بهدوء، سيدي الحاكم: تستطيع أن تأمر بنقلي إلى السجن، ووضعي في زنزانة وراء القضبان ووسط الأغلال. . . لكن، أيكفي ذلك كله ليجعلني أنام، إذا كنت لاأريد، وجهدت في ألا أغمض جفوني؟

سانشو : هذا ليس سيئاً. أنت ذكي، يافتى. سرْ برعاية الله، فأنا لاأرغب في انتزاع النوم منك. لكن، لاتهزأ بالعدالة مرة أخرى، ولاتبحث عن السخرية منها بين حوافر الخيل حين تلتقي بإحدى الدوريات. ومادمت تملك ذكاء، فاحتفظ به لحين الحاجة، ولاتبدّده عبثاً، بل يجب الإفادة من كل شيء. ونصف الآلف خمسمائة.

ش. ظ : أقبل يديك سيدي الحاكم. (يخرج صافراً بهدوء وسط الحرس. يسمع في الخارج صراخ ونحيب كبيرين.)

سانشو : أي صراخ هذا؟ صاحبه لابد من أن يكون امرأة. (تدخل امرأة محلولة الذوائب وعليها مظاهر الاحتيال. ويدخل تاجر الماشية.)

محتالة : العدل، سيدي الحاكم، العدل! إذا لم أجده في الأرض، فسوف أطلبه من ربّ السماء. أنصفني من هذا الحقير!

سانشو : العدل للجميع، مادمت أحمل هذه العصا. لكن، تكلمي بصوت أخفض، وإلا فلن أسمع. ماهي قضيّتك؟

محتالة : آي، ياسيدي الحاكم! آه، ماأتعسني! متى رأيتم فتاة تُهان هذه الإهانة في جزيرتكم؟

سانشو : على مهلك، ياسيدتي. الرأي لايصبح صواباً إذا قلناه صراخاً. قفي إلى هذا الجانب. وتعال، أنت أيها الرجل، إلى الجانب الآخر. والآن كلّميني في هذي الأذن، واتركي البكاء. شيئان لاأصدقهما أبداً: عرج الكلاب وبكاء النساء. ماهي شكواك؟

محتالة : انظر إن كنت أبالغ ، ياسيدي الحاكم . أنا فتاة شريفة ، ولم يمسسني أحد حتى اليوم . وأنا قاسية مع طلاب الوصل والغرام، كالخرنوبة . أسير واثقة سليمة بينهم كالسمندر وسط النيران . لقيني هذا الرجل السيء وسط الحقول ، واستغلّ وحدتي وضعفي ، واستباح جسدي كأنه خرقة منشورة ، وغصبني بالقوة ما عملت خلال عشرين عاماً على حفظه . انظر ياسيدي ، إن كنت على حق في رفع صياحي إلى السماء ، وأطلب إحقاق الحق صارخة ! (تبكي يائسة .)

سانشو : هل انتهيت؟ لنرَ الآن . (يلتفت بأذنه الأخرى إلى الرجل .) ماذا تقول حول شكوى هذه المرأة؟

التاجر : أقول ياسيدي ، إن جانباً منها صحيح ، والآخر كذب ، وليس لها حق قبلي . أنا تاجر ماشية بسيط . جئت هذا الصباح إلى هذا المكان لأبيع ـ بعيداً عنك ـ أربعة خنازير ، كلّفتني ضرائب وسمسرة مايساوي ثمنها . وكنت راجعاً إلى قريتي ، فالتقيت بهذه المرأة مصادفة . وأنا شاب . . وهي حسنة المظهر . . . والطريق خالية من المارة . وأخيراً ، سيدي الحاكم . . .

سانشو : مفهوم . الرجل نار والمرأة حطب ، ثم يأتي الشيطان وينفخ . تابع .

التاجر: في الواقع، نظرت إليها، ونظرت هي إليّ... وجاء الشيطان... (ينفخ طويلاً بقوة.) لكنني أقسم على خلاص روحي سيدي الحاكم، أني لم أغصبها أبداً. بل جرى ذلك بإرادتها ولقاء أجرٍ حتى أنها قبلت بعض القطع الفضية هدية. هذي هي الحقيقة الوحيدة، وماعداها أباطيل.

محتالة: أرأيتم وقاحته! إهانة فوق إهانة! ياللفتيات الفقيرات الضعيفات! من لنا، إذا لم تسع عصا العدالة إلى نجدتنا! (تبكي صارخة بغزارة.)

سانشو: قلت اسكتي. كفى كلاماً وأنيناً! (يظل متفكراً. لحظة صمت.)

الكاتب: ماهو حكمك؟

سانشو: قضية صعبة. ألديك نقود حاضرة يارجل؟

التاجر: عشرون دوكادو في هذي الحقيبة. وهي كل ثروتي.

سانشو: هاتها. وأنتِ أيتها المرأة، أترضين بهذا المبلغ تعويضاً عن الضرر الذي سببه لك هذا الرجل؟

محتالة: (مشرقة الوجه.) عشرون دوكادو فضية! شكراً لك، سيدي الحاكم! جازاك الله، وزاد في عمرك. هكذا يُحمى الفقراء ويحفظ شرف الفتيات! شكراً، ألف

مـرة سيـدي الحـاكـم . (تخـرج وهي تنحني انحناءات كبيرة .)

القهرمان : يبـدو لي ياسيـدي ، أنك لم تفـد هذه المرة من قـوة عـزمك وحدّة ذكـائك كـما في المرات السـابقة . سرعـان مادفعتك دموع المرأة إلى اللين والشفقة !

سانشو : اسكـت ، ولاتحكم أبداً حـتى ترى النهـاية . هذه بداية القـضية . والآن سنعرف الحقـيقـة . أسـمعت حكمي يارجل؟

التاجر : لسوء الحظ سـمعته ، وهذا الجراب كل ثروتي ، وخبز بيتي .

سانشو : جيـد ! اجـر وراء المرأة ، وانتـزع الجـراب منهـا ، وعُد وإياها إلى هنا .

التاجر : أأنزع منها الجراب؟

سانشو : و فوراً . أم أنت بحاجة لأقول ذلك مرة أخرى؟

التاجر : لاتهـتم . كـلامك لايسـقط على أذن أحـمق ولاأطرش . (يهـرع إثرها .)أيتـهـا المرأة! أيتـهـا المرأة! قفي ، باسم القانون ! قفي !

القهرمان : كيف رجعت الآن بقرارك ياسيد؟

سانشو : اسكت . أنا أفهم ما أعمل . والعوان لاتُعلّم لبس الخمار . وحين يذوب الثلج يظهر المرج . (يسمع في الخارج صوت المرأة وهي تصيح .)

محتالة : يا عدالة الرب ، وعدالة البشر ! تعالوا إلى اللص ، أمسكوا الحرامي ! (تدخل والتاجر كلّ منهما متشبّث بالجراب ويتنازعانه إلى أن تغلّبت المرأة ، وسقط التاجر أرضاً .) انظروا إلى قلة حياء هذا السافل ، وقلة خشيته حتى أنه أراد أن ينتزع مني الجراب الذي حكمت به المحكمة لي ، في قصر الحاكم نفسه .

سانشو : لكن ، هل انتزعه منك؟

محتالة : أينتزعه مني؟ عليه أن ينتزع روحي مني أولاً . إذاً ، ما أحلاني ! فلاكمّاشات ولاشواكيش ولامطارق كافية لينتزعه من بين أظافري . قبل ذلك ، عليه أن ينتزع روحي من جسدي .

سانشو : أحسنت ، أيتها المرأة الشجاعة ! آتيني بهذا الجراب إلى هنا .

محتالة : لكن ، سيدي الحاكم . . .

سانشو : هاتيه ، قلت لك ! (يأخذه .) من أين جاءتك هذه القوة يا أخت؟ وأقسم لك ، لو أنك بذلت هذه الشجاعة

وهذا العزم، في الدفاع عن شرفك، لما وجدت قوة في الأرض تغلبك. (ينهض، ويلوّح بالعصا مهدّداً.) سيري غير راضية ولا مرضية، ياكذابة. ولا تظهري في كل أنحاء الجزيرة وإلا جلدتك مائتي جلدة. انقلعي! (تخرج المرأة باكية محتجّة.) وأنتَ أيها الرجل الطيب. خذ نقودك وعدْ إلى بيتك ولا تقف في الطريق مع أحد. واعلم أن امرأة شريفة لايمكن أن تُشرى بكل ذهب العالم. أما الأخريات، فنسأل الله عن أن يبعدهن عن طريقنا. وصدق المثل: عنز جيدة، وبغلة جيدة، وامرأة سيئة هي ثلاث بهائم سيئة. إذاً، احذر جيداً، ولا تجعل الشيطان ينفخ لك مرة أخرى.

التاجر: جزاك الله خيراً، سيدي الحاكم. (يخرج. يسمع في الخارج قرع طبل وصوت بوق طويل.)

سانشو: أبويقات هنا؟ ماذا تعني هذه الإشارة؟

الكاتب: واحدة من اثنتين: إماهي أخبار هامة، أو أن الحرس رصد سفناً موريسكية. وهذا إنذار بالحرب.

سانشو: (يدع العصا وينزل عن المنصّة.) أحرب، وسفن موريسكية؟

القهرمان: هم عدونّا اللدود. ونحن نعيش دائماً بهذا الخوف والتهديد بالغزو.

سانشو: خبر جميل لإتمام الهضم. قل لي، ياأخ: إذا نزل الأعداء أرض جزيرة، ماذا يصنع الحكام؟

القهرمان: يخرجون على رأس جيوشهم. هذا امتياز يخولّهم إياه منصبهم. فإما أن يحرزوا شرف النصر، أو شرف الموت أو ّلاً في ساحات الوغى. (يلتفت نحو الخادم الذي يظهر حاملاً رسالة.) أهم أعداء أم أخبار؟

الخادم: بريد عاجل من السيد الدوق.

سانشو: هذا أقل سوءاً. انظر ياسيد، ماذا فيه.

القهرمان: (يقرأ الغلاف.) «إلى الدون سانشو بانثا، حاكم جزيرة برتاريا. يفتح بالذات أو بيد السكرتير.»

سانشو: ومن سكرتيري هنا؟

الكاتب: أنا ياسيدي. لأنني أعرف القراءة والكتابة. فوق ذلك، أنا من بسكايا.

سانشو: بهذه الإضافة تستطيع أن تكون سكرتير الإمبراطور ذاته. افتح، إذاً هذه الرسالة، ولنعلم ماذا تقول.

الكاتب: «وصل إلى علمي، ياسيد دون سانشو بانثا، أن أعداء هذه الجزيرة الدائمين ينوون القيام بهجوم صاعق عليها في ليلة من هذه الليالي. كُنْ يقظاً، ولاتركنْ إلى الراحة، ولاتجعلهم يفاجئوك على حين غفلة وأنت

نائم. وعلمت أيضاً من بعض الجواسيس الموثوقين أن أربعة أشخاص دخلوا هذه الجزيرة متخفّين، وهدفهم القضاء على حياتك. افتح عينيك جيداً. ولاتثق بأحد يقترب منك، ولاتأكل أي طعام من المطبخ، للاشتباه في أنه مسموم. أنا واثق بشجاعتك وحسن إدارتك للحفاظ على سلامة الجزيرة. من هذا المكان. في السادس والعشرين من تموز. صديقك الدوق.»

القهرمان: الأخبار خطيرة. ما رأي سيادتك؟

سانشو: (بعد فترة صمت، وبحزن هادئ.) أقول، ياسادة، إذا كانت وظيفة الحاكم هكذا، فلست ابن أمي إن خُلقت لهذا المنصب. (يأخذ بتجريد نفسه من شاراته.) فإذا كان عليّ أن أقود جيوشاً، وأسهر على الأسلحة، وأفصل في قضايا في كل ساعة ليخرج هذا الجانب راضياً، وذلك الجانب ساخطاً، وأعيش في خوف من أن يقتلني أعداء لم أسئ إليهم بشيء، ولاآكلٍ شيئاً، ولاأشرب خمراً كما يأمر هذا الطبيب الجلاد. . . إذا كان الحكم كله هكذا، فها هي مفاتيحي وشاراتي وليأخذها من يشاء. . . إلى عملي وأرضي أعود. أحبّ إليّ أن ألبس الصوف من أن أموت بين الشفوف. أعيدوا إليّ حماري صديقي الوحيد الوفي

الذي لاأفكر في الابتـعـاد عنه مـرة أخـرى أبداً. وإذا كنت أستحق شيئاً لقاء ما قمت به، فكل ماأطلبه منكم كـسرة خـبـز وقطعـة جبن آكـلهـا في الطريـق تحت ظلّ سنديانة خـيـراً من أكـلهـا في القـصـر وسط أغطيـة مطرّزة. (للجـمـهـور.) وأنتم، يامـواطني جـزيرة برتاريا، أقول لكم: وداعاً. فإذا لم أصنع خيراً كبيراً لكم، فلم أصنع شراً أيضاً. فلايغتبني أحد. كنت حاكماً وأخرج ويداي نظيفتان. ولدت عارياً، وأجد نفسي مجرّداً من كل شيء، لاعليّ ولاليَ. وداعاً ياسادة.

(ستار)

انترميس الشاب الذي تزوّج بفتاة شرسة

حسب «الحكاية» ٣٥ من"الكونت لوكانور"[1]

الشخوص

باترونيو	فتاة
شاب	والد الفتاة
أب الشاب	أم الفتاة

موسيقيون - راقصون

(١) أو كتاب باترونيو، مجموعة قصص في خمسة أقسام، كتبها الأمير دون خوان مانويل (١٢٨٣ - ١٣٤٨) بغرض تعليمي وجمالي. وأهمها القسم الأول ويتضمّن ٥٢ قصة، أو مثلاً كما دعاها. لأن كل قصة كانت تنتهي بحكمة أو عظة. (المترجم).

مقدمة

(يظهر باترونيو أمام الستارة ويتحدّث إلى الجمهور .)

باترونيو : استـــمــعــوا الآن ، ياســادة ، إن كنتم راغــبين في الاستـمتاع بقـصة قديمة . واعلموا أني - أنا باترونيو - خادم الكونت لوكانور العظيم ومستشاره . فقد كان من عادته أن يستشيرني في كل القضايا التي تعرض له . القـضيّة هذه المرة ، تتـعلّق بزواج خـادمـه بفتـاة أغنى ، وأرفع نسباً منه . ولئن كان هذا الزواج جيداً ، فـما كـان يجـرؤ على الإقـدام عليه ، لخـشيـة كـانت تعتريه . وسبب الخشية أن الفتاة كانت أقوى وأشرس من كل شيء على وجه الأرض . كانت جافّة الطبع ، ومـاكـان يوجـد رجل يسـتطيع أن يتـغلّب عليـهـا ، بالتـأكـيـد . لذلك أريد ، أنا باترونيـو مـستـشاره ، أن أخـرج إلى المسرح هذه القـصـة التي تـأتي هنا ضـربة

لازب، لكي تستـمـدّوا أنتم ومـعلمي منهـا مـثـلاً وعـبـرة. وهي «قـصـة الشـاب الذي تزوّج امـرأة شرسة»، والوسيلة التي لجأ إليها للسيطرة عليها منذ لحظة زواجـهما. اسـمعوا القصة المكتوبة في كـتاب مشهور، وهو أول كتاب قصصي عرف في الأراضي الإسبانية. الفضل في المتعة والتفكير الذي تبعثه فيكم يعود إلى عظمة مؤلفـهـا الأمـيـر دون خـوان مـانويل الذي كـان في قشتـالة منذ مـايزيد على سـتـمائة عـام، أحد رجال البلاط النابهين، وشاعر ملاحم، ومؤلف كتب في الصيد والحكمة. (تنسحب المقدمة ويظهر على الخشبة الشاب و والده الشاب.)

المشهد الأول

الأب : أقول لك يا بني ، أن تفكر في الأمر جيّداً قبل أن تدقّ الباب . لأن هذه الفتاة أغنى منا بكثير ، وأعلى نسباً . وأسوأ شيء أن تتفوّق المرأة على الزوج بالنسب والمال .

الشاب : هذا صحيح . لكن ، فكر يا أبي أنك مادمت فقيراً ، فلن تعطيني شيئاً أعيش به بكرامة . فإذا لم توافق على مشروع هذا الزواج ، فسوف تراني مضطراً إلى سلوك حياة ماجنة ، أو أترك هذه الأرض بحثاً عن حظّ أفضل .

الأب : يدهشني جداً سعيك وجرأتك . كلُّ ما فيكما يجعلكما مختلفين غاية الاختلاف . أنت فقير وهي غنيّة . ولديها من الأراضي مالا تستطيع أن تقطعه على الحصان خلال يوم واحد ولو سار خبباً .

الشاب : لاتغترّ بذلك . فإذا كانت ذات ثراء ، فسوف أزيد في ثروتها بجهدي . وإذا كانت أراضيها لايقطعها الحصان خبباً في نهار واحد ، فسوف يقطعها حضْراً .

الأب : هناك شيءآخر . أنت ذو طباع حسنة رقيقة ، وهي ذات طباع فظّة شريرة .

الشاب : على ذلك أجيبك يا أبي : الفرس من «خيالها» . . . أنا سأعرف كيف أشدّ اللجام عليها منذ البدء .

الأب : انظر ، يا فتى ، أبوها نفسه لم يستطع ترويضها . و هذه الهالكة ، ذات طبع شرس حتى لم يرغب رجل في الدنيا ، ماعداك ، أن يتزوّج بها .

الشاب : دقّ هذا الباب ، يا أبي . الفتاة شرسة ، وهي على شراستها تعجبني . فإذا رضي أبوها تزويجها ، فسوف أعرف كيف أسيّر الأمور في بيتي منذ اليوم الأول . دقّ دون خوف .

الأب : إذا كانت تلك إرادتك ، فليكن ، ولاتقل بعدئذ إني لم أحذرك من قبل . لنطلب الآن ، يد الفتاة ، وأسأل الله أن يُرفض طلبنا . آه ، من هذا البيت!

(يدقّ بعصاه . تسحب الستارة كاشفة عن بيت الفتاة . الأب وحده ومشغول بتنقية بذور للزرع .)

المشهد الثاني

الأب الغني : أشعر بالسعادة لرؤيتك ياجار . أي شيء جاء بك إلى بابي؟

الأب الفقير : سيدي وصديقي ، جئت بطلب إليك ، يخصّ ابني هذا .

الأب الغني : قل لي ماهو .

الأب الفقير : أنت ، ياصديقي ، لك بنت وحيدة .

الأب . غ : وحيدة حقاً ، لكنها تُثقل عليّ أكثر من مائتين .

الأب الفقير : وأنا لدي ابن وحيد . جمعتنا من قبل الصداقة لما كنا فقيرين . واليوم جئت راجياً أن يجمعنا الأبناء مع بعضنا أيضاً ، إن شئت ذلك .

الأب الغني : (ينحّي شغله جانباً ، وينهض ذاهلاً .) وكيف ذلك ياصديقي؟ أعن الزواج تجرؤ أن تحدّثني؟

الأب الفقير : لقد نبّهت الشاب إلى ثروتك وإلى فقرنا . لكنه

أصرّ . . .

الأب الغني : (يتقدّم نحو الشاب الذي يتراجع حائراً .)أيريد هذا الفتى أن يتزوّج ابنتي؟ ألا تخدعني أذناي؟

الشاب : هذا رجاؤنا إن قبلت به .

الأب الغني : وكيف لاأقبل! بورك لك يافتى . وأيّ ثقل كبير رفعته عن ظهري! (يعانقه .)

الأب الفقير : إذاً . . . أنت راضٍ؟

الأب الغني : الفتاة لك . ولم أسمع أبداً أي رجل يريد الزواج بابنتي ويخرجها من بيتي . لكني سأكون ، والله ، صديقاً غير وفيّ إن لم أنبّهك إلى ماهو هام في هذه اللحظة الحرجة . نحن صديقان وأنت لك ابن وحيد . وسيكون سوءاً مني لورضيت بتعاستك . إذ عليك أن تعلم أن ابنتي فظّة وشرسة كالأفعى ذاتها . وإذا تزوج هذا الشاب بها ، سيكون الموت خيراً له من الحياة .

الأب الفقير : على مهلك! على مهلك ياسيدي! لاتخشَ شيئاً . لأن هذا الزواج وافق هواه وذوقه ، والشاب يعلم من أية طينة هي . وهو يريدها بعجرها وبجرها .

الأب الغني : إذا كان كذلك، فلاحاجة لمزيد من الكلام. أنا أوافق على زواجها بك، يافتى، برغبة كبيرة وأرجو الله أن تخرج من هذه الصفقة رابحاً. (يسمع في الداخل صخب وشجار، وقعقعة صحون تتحطم.) لاتفزعوا. إنها الفتاة تتناقش بودٍّ مع أمها. (ينادي صائحاً.)تعالي يا فتاة! وأنت ياسيدة! تعاليا واسمعا أخباراً عظيمة. (تخرج الأم والفتاة مهتاجتين جداً، وهما تتنازعان قطعة قماش كل منهما تجذبها لجهتها.)

الأم : اتركيها. أقول لك، اتركيها.

الفتاة : سأدافع عنها بأظافري ولو تمزّقت. هي لي، لي، لي.

الأب الغني : ماهذا ياسيدة؟وأنت، أيتها البنت العاصية، أهكذا تظهرين للناس؟ ألا ترين أن لدينا ضيوفاً.

الفتاة : (بفجاجة، وهي تنظر من حين لآخر.)وأي ضيوف هؤلاء؟ ولماذا أهتم بهم؟

الأب الغني : هذا الشاب، يا بنيتي، زوجك.

الفتاة : زوجي؟هذا؟((ينحني الشاب احتراماً وتضحك هي.) شكراً على هذه الهدية. ألم تجد لي هدية في السوق خيراً منها ياأبي؟

الأم : أخشى ، يا زوجي ، أن تكون قمت بذلك عن بصيرة وعمد . أتريد أن تزوّج ابنتنا بأفقر سكان المدينة؟

الأب الغني : اسكتي مرة واحدة ، ياسيدة ، ولا تجادلي أبداً . هذي إرادتي ، وقد تّم الأمر . غداً سيكون العرس .

الأم : (غاضبة .) إرادتك ! إرادتك ! أية إرادة لك ، ياتبع ! آي ، يالابنتي ، يالابنتي المسكينة !

الأب الغني : (يقترب من جاره ويساره .) والأم متمرّدة عاصية أيضاً ، ياصديقي . لكني لن أجد أحداً يخرجها من بيتي . (تسدل الستارة ويعود باترونيو .)

المشهد الثالث

باترونيو : رأيتم ياسادتي، كيف بدأت القصة. وسنرى فوراً كيف ستتطوّر وتنتهي. كانت الفتاة قوية، والشاب حازماً جداً. أما ماكان من زواجه وحظّه فستعرفونه الآن. أنا سأنسحب. هاهو الموكب يقبل. وقد ظهرتُ فقط لأنقل إليكم هذا النبأ: تم الزواج، وهاهي العروس قد زُفّت إلى بيت زوجها. (يحيّي موكب الزفاف القادم من الساحة ثم يخرج. يصعد الموكب إلى المنصة. تُرى طبيلات ومزاهر ودفوف. ثم الأب الغني والأم يتبعهما العروسان وأزواج من الفتيان والفتيات متوّجين بأكاليل الزهر، يعقدون حفلة رقص بالشرائط والإيماءات. حين يُختتم الرقص وسط الصهيل والصياح، ينتحي الأب بابنته في زاوية.)

الأب الغني : الآن صرت زوجة ، ياابنتي ، فاسمعي مني نصيحة : أطيعي زوجك ، واخدميه . فراحة البال بالطاعة ، وليس بالتسلّط .

الأم : (تمسك بابنتها من يدها وتنتحي بها في الركن المحاذي .) صرت زوجة ، يابنيّتي فاسمعي مني نصيحة : لاتكوني لينّة الجانب لافي الخير ولا في الشر . فمن يلحس الأيدي ، يُضرب بالعصي .

الأب الغني : هيا ، ياسادة! وليخرج الموكب . وليُترك العروسان وحدهما حتى اليوم التالي . (يودّعون العروسين بين ضحك وعناق ، ويخرجون جميعاً وهم يغنّون . يسحب الشاب الستارة ويدخل وعروسه البيت . منضدة عليها طعام ، وشمعدان مشتعل . في القاع ، يُرى من النافذة حصان يأكل من عليقته . بينما تخلع الفتاة حليّها وأكاليلها ، تسمع أغاني الموكب وهو يبتعد .)

المشهد الرابع

الشاب : أقــول ، ياامــرأة ، ليس من عـــادة أهل هذا البلد أن ينقصوا شيئاً من العشاء والمائدة المعدة للعروسين .

الفتاة : لكن ، ألاترى أن كلّ شيء جاهز ؟

الشاب : لاأرى إبريق الغسيل .

الفتاة : إبريق الغـــســـيل ! ألهـــذا تتطلع يازوجي ؟ كُلْ واسكت . كـانت عـادتك في بيـتك أن تأكل دون أن تغسل يديك .

الشاب : ليس كــذلك . كنت فــقــيــراً دائمــاً ، لكنني كنت نظيـفاً . أريد أن أغسل يدي ! (ينتظر . لما رأى أنها غـير مبالية ، يضرب المائدة بقبضة يده رافعاً صوته .) أريد أن أغسل يديّ ! (ينظر غـاضبـاً فيمـا حـوله .) أنت ، ياكلب ! صبّ الماء على يدي ! (صمت آخر وانتظار .) عجباً ! ألم تسمع أيها الكلب الخائن : صب الماء على

يدي! آه! أتصمت؟ ألا تطيع؟إذاً، انتظر، وسوف ترى! (يخرج غاضباً من بين الستائر. يطعن الكلب طعنات، فيعوي مذعوراً.)

الفتاة: لكن، ماذا فعلت يازوجي؟ أقتلت الكلب؟ انظروا أيّ نوع من الرجال هذا.

الشاب: أمرته أن يجلب الماء ولم يطعني. (ينظّف سيفه بالشرشف. وجال بعينيه فيما حوله غاضباً. يتجه صوب القط الذي يُفترض أنه في الجانب الآخر.)إيه! أنت، ياقط: صبّ الماء على يدي!

الفتاة: أتتحدث إلى القط، يازوجي؟

الشاب: عجباً أيها الغدّار المنافق! وتسكت أنت أيضاً؟ لكن، ألم ترَ ماحلّ بالكلب لأنه لم يطعني؟ أقسم، لوظللت تعاندني، سأصنع بك ماصنعته بالكلب. صب الماء على يديّ، الآن، وفوراً.

الفتاة: لكن، يازوجي، كيف تريد من قط أن يعلم شيئاً عن إبريق الغسيل؟

الشاب: (يأمرها بجفاء أن تسكت.) ماذا؟ أمازلت ساكناً؟ آه! أيها القط الخائن... انتظر! انتظر، أنت أيضاً!

(يخرج من بين الستائر . يُسمع مواء حاد . ثم يدخل مرة أخرى حاملاً القط على رأس السيف . يرمي به على الأرض .)

الفتاة : آه! ياقطي ، ياقطي الحبيب المسكين! . . (ترفعه من ذيله . وتتحقّق من أنه ميت . ينظر الشاب فيما حوله وقد ازداد غضباً . يسمع في الفناء صهيل الحصان .)

الشاب : والآن ، أنت أيها الحصان . صبّ الماء على يدي .

الفتاة : كلا ، لهذا! اهدأ يارجل! كلاب وقطط يوجد منهاكثير . لكننا لانملك إلا حصاناً واحداً .

الشاب : لكن ، أتظنّين يا امرأة أن هذا سبب كافٍ لينجو مني إن لم يخدمني . فليحذر من إغضابي ، وإلا ، سيلقى والله ، الموت كما لقيه الآخران . (يحدّق فيها بإمعان ويتقدّم نحوها . تتراجع وقد أخذ الخوف يعتريها .) كل ذي روح في البيت سيلقى المصير ذاته . إيه! أسمعت أيها الحصان؟ صب الماء على يدي فوراً!

الفتاة : (ترسم شارة الصليب .)ياأرواح المطهر! جُن الرجل!

الشاب : ماذا؟ ألا تتحرك؟ إذاً ، خذْأنت أيضاً! خذ! (يطلق عليه طلقة . يسقط الحصان صريعاً .)

الفتاة : رحمتك ، يارب ! لقد مات الحصان !

الشاب : إذاً ، مـاذا؟ أأمـر بشيء ولا أطاع في بيـتي؟ (يدفع الكرسي بقـدمـه . يجـيل النظر في كل الأنحـاء بغـضب . ثم يثبّت نظره عليـهـا ، ويقـول برصـانة .) أنت ، يا امرأة . . . صبّي الماء على يدي!

الفتاة : ماء؟ فوراً! ولِمَ لم تطلب مني من قبل يازوجي؟ (تهرع وتعود حاملة الإبريق ومنشفة .) لاتزعج نفسك . أنا أغسلهما بنفسي .

الشاب : هذا حسن ! أعدّي العشاء .

الفتاة : نعم ، نعم ، نعم ، العـشـاء! . . الآن ، فـوراً . هاهو العـشـاء جـاهز ! (تقـوم على خـدمـتـه مـصطنعـة ابتسامات . تظل واقفة بينما يتناول الطعام .)

الشاب : آه! شكراً لله أنك قـمـتِ بما أمـرتك به في الوقت المناسب ، وإلا لصنعت بك بتـأثيـر الغـضب الذي ركبني ما صنعته بالحصان .

الفتاة : وكيف لاأطيعك يازوجي؟ أعلم جيداً أن أفضل زينة تُسعد بها المرأة ، خدمة سيد بيتها وإكرامه . مُرني بما تريد ، وإني أقسم لك . . .

الشاب : اسكتي!

الفتاة : نعم، نعم، معك حق. العفو منك.

الشاب : العشاء رديء.

الفتاة : نعم، نعم. هو رديء فعلاً.

الشاب : ولن يحدث هذا مرة أخرى.

الفتاة : لا! لا! لن يحدث. أنا سأعدّه بنفسي غداً.

الشاب : أنا ذاهب الآن لأنام.

الفتاة : اذهب! اذهب!

الشاب : واحذري من أن يزعجني، أو يقلق راحتي أحد. فإنني، بهذا الغضب الذي انتابني، لاأدري إن كنت أستطيع النوم هذه الليلة. وهذا الكرسي، ماله؟

الفتاة : نعم، نعم، الكرسي... (تهرع لرفع الكرسي، ووضعه في مكانه.)

الشاب : أضيئي لي الطريق!

الفتاة : نعم، نعم، سأفعل.

الشاب : ثم عليك بالسكوت!

الفتاة : السكوت. (ترافقه حاملة الشمعدان حتى العتبة، مفسحة له الطريق باحترام. يخرج الشاب. خارج

البيت، لاتزال تسمع أغاني العرس . تلتفت الفتاة مذعورة محاولة فرض الصمت في كل الاتجاهات .) أنتم، يامجانين، ماذا تصنعون؟ اسكتوا ولا تزعجوا زوجي، وإلا، فسوف نموت جميعاً، جميعاً هذه الليلة . (تأخذ الموسيقى بالخمود بعيداً . تطلب من الجمهور أن يلتزم الصمت، وتسير على أطراف أصابع قدميها، بينما تسحب الستارة بلطف .)اسكتوا! اسكتوا جميعاً، بحق الله . . سيدي نائم . (تسود الظلمة للحظة . يصيح ديك الفجر . ويبدأ الصباح في الشروق .) .

المشهد الخامس

أمام الستارة

(يظهر والد الفتاة خلسة، ويستمع واضعاً يده على أذنه.)

الأب الغني: لاأسمع شيئاً . . هذا الصمت، والله، يثير الريبة. ماذا عساه جرى هنا؟ (ينادي.) صهري! . . ياصهري! . . (يخرج الشاب) ماأخبارك؟

الشاب: صارت الأفعى وديعة!

الأب الغني: مستحيل . . أصارت ابنتي وديعة؟

الشاب: كالحمل!

الأب الغني: هذه معجزة كبيرة. ماذا صنعت حتى حصلت على هذه المعجزة؟

الشاب: شددت بقوة على اللجام منذ البدء. طلبت إلى الكلب أن يجلب لي ماء، وإذ لم يفعل، قتلته أمام عينيها طعناً. وصنعت الأمر ذاته بالقط ثم

الحصان. وهكذا لما أمرتها أن تجلب الماء، قامت بذلك كالطائر خوفاً من أن تلقى المصير ذاته. وأقسم لك، إن ابنتك ستكون، منذ اليوم فصاعداً، أطوع امرأة في الدنيا. وسنحيا معاً حياة كلها سعادة.

الأب الغني: أيها الشاب العفريت، العفريت! وأية فكرة أوحيت بها إليّ، إذا كنت أستطيع أن أصنع الشيء ذاته مع الأم. وهي الأخرى أيضاً متمردة عاتية!

الشاب: لاأدري ماذا أقول لك، ياعمي، سوى أن أدوار التقليد ليست جيدة. وأذكرك ببيتين من الشعر للكونت لوكانور:

إذا لم تكشف منذ البداية من أنت
فلن تفلح بعد ذلك أبداً.

اسكت. هاهي زوجتك قادمة.

الأب الغني: بحياتك ياشاب، اترك لي هذا السيف.

الشاب: خذه. كان الله في عونك. ووداعاً ياحميّ. (يخرج. يسحب الستارة. يتخذ الأب موقفاً صارماً مستنداً إلى السيف. تدخل الأم.)

المشهد الأخير

الأم : ماذا تصنع هنا، في هذا الوقت الباكر، وأنت مستند إلى السيف ؟

الأب الغني : (بشكل صارم.) ومن أنت حتى تسأليني شيئاً، ياسيدة؟

الأم : عجباً! من أنا، قلت؟

الأب الغني : تكلمي حين يُطلب منك ذلك. وحذارِ من أن تغضبيني!

الأم : الله! الله! يازوجي، إلى هنا وصلنا؟ (يصيح الديك في الحظيرة.)

الأب الغني : اسكتي وانظري إلى ماسيجري هنا. أنت أيها الديك الخائن، ألم تسمع؟ صب الماء على يدي! ألاتطيع بالحسنى؟ إذاً انتظر... انتظر! (يخرج غاضباً إلى الحظيرة حيث تسمع وقوقة دجاجات

ووقوقة ديوك .)

الأم : هذا الرجل يعدّ لنا شيئاً ! (تقف مكتوفة اليدين منتظرة بهدوء . يعود الأب حاملاً الديك من عنقه .)

الأب الغني : أرأيت ما فعلت بهذا الديك ، لأنه لم يطعني ؟

الأم : نعم . فهمته جيداً . لكنك تأخرت في صنع ذلك يازوجي . كان يجب أن تعمل ذلك منذ ثلاثين عاماً . والآن صرنا نعرف بعضنا جيداً . ولن يفيدك شيئاً ولو قتلت مائة ديك . (تنتزع الديك منه وترميه به .) ادخل البيت ، ياتبع ! ادخل ، ادخل ، أقول لك .

(ستار)

هزلية القرنان المضروب

حسب القصة ٧٧ من الديكاميرون

الشخوص

مقدمة	أنيتشينو/ وكيله
السيد	برونيلا/ خادمة
إيغَنَو/ تاجرغني	خادمان
بياتريس/ زوجه	

مقدمة

تخرج (المقدمة) من بين الستائر، وهو خادم السيد بوكاشيو. ويلبس كالصعاليك رداء فضفاضاً ذا مربّعات متعددة الألوان. تبدو عليه سيماء مهرج خارج من ورق اللعب. يحيّي على طريقة أهل البلاط بانحناءة كبيرة.

سيداتي، نساء فلورنسا النبيلات، الحرائر منهن والخادمات المتواضعات، الفتنيات الطائشات والأمهات الحذرات، العازبات المفعمات بالأحلام والمتزوّجات اليقظات، أتوجه إليكن، وإليكن وحدكن بالسلام، لأنكن ملح الأرض وزهرة الدنيا.

وإذا كان أحد الرجال الحصفاء، قد تسلّل إلى هنا في غفلة من هذا المجلس الكريم، فلا تزال لديه فسحة من الوقت للانسحاب، لأن معلّمي وسيدي/ ميسّر بوكاشيو/ يثق بالنساء وحدهن. وهو يغني النساء فقط. وقد خصّهن وحدهن بكتابته، ومايأمل في كتابته مادام حياً.

وبعـد هذا التـوضـيح وهذه التـحـيـة سـأكـشف لكُنّ عن المهمّة التي كلفني بها معلمي. تتذكرْن، ياصديقاتي الحلوات - وهي كلمات بوكاشيو - تتذكّرن أني قطعت لكنّ عهداً مقدّساً منذ سنوات خلت، حين كـان الطاعـون يفـتك بفلورنسـا الحبيبة. كان ذلك ذات يوم ثلاثاء في الصباح. وكان المكان سانتا ماريا الجديدة. كل مـاحـولنا كـان حـزناً وبكاء. وبدلاً من أنغـام الهـارْب والعـود كـانت تسـمع دقـات الأجـراس، والتـراتيل والمواكب الدينيـة العـامـة. وبدلاً من العـربات الأنيـقـة، كـانت شـوارعنا تشـهـد صـفـوفـاً من النعـوش تغطيـهـا مـلاءات الموتى بالطاعون وبغيره. كان الزوج يتخلّى عن حليلته بجبن، والآباء يفـرّون من أبنائهم ذاتهم. وكـان الأشـرار يفـيـدون من ركـود القـانون ليـزرعـوا الذعـر الأكـبـر ناهبين البـيـوت المتروكـة دون حماية، سالبين ضحاياهم، منتهكين حرماتهم.

ماذا كان بقدرتي أن أصنع لكنّ في مناسبة مشؤومة كهذه المناسبة؟ أن أقدّم لكنّ البسمة والظرف لمكافحة الشر، أن أقصّ عليكن أشهى الحكايات التي قد أعرفها، أو أبدعها إن لم أكن أعرفها لأبعد عنكن ظلّ الأفكار السود.

هذا هو الوعـد الذي قطعتـه على نفسي ذلك الثلاثاء في كنيسة ماريا الجديدة. وإني أفي به دون إبطاء، حتى احتلّت هذه

القصة التي أقدّمها لكنّ هذه الليلة المركز السابع والسبعين بين القصص المائة التي أفكر في كتابتها إن واتتني الجرأة، وأذنتنّ لي في ذلك.

لكن، ياصديقاتي: أيخطر ببالكنّ أن هذه المحاولة النبيلة جداً، جلبت عليّ أشرس أشكال النقد من أعداء الجنس البشري المسمّين بالرقباء، بدلاً من أن تحمل إلى نفسي السلوى؟ وليْتَكن سمعتنّ هياجهم وصفيرهم وعضّاتهم. لكن، فاتهم أن يطالبوا برأسي على أني مفسد العادات، وعدو البلد.

وأقرّ بأن الدهشة لم تفارقني بعد أن كنت أحسب أن الحسد ريح صرصر تهبّ على القمم العالية فقط. وإنما صارت تهب على أصغر التلال وأخفضها، والدليل أنها انطلقت الآن على موهبتي الفقيرة. أمر لاأدري، في الواقع، إن كنت أحزن له أوأشكر. لأنني كنت أسمع دائماً أن الكتاب الخالين من الموهبة يسلمون من سهام النقد. أما وأني أُدِنْتُ بسببكن، فإنني أقدم دفاعي لَكُنّ على أنكن المحكمة الوحيدة الشرعية.

بثلاث جرائم يتهمني كلاب الأخلاق العامة الضارية. أولاها، الهبوط بمستوى موهبتي الطبيعية، وتبديدها في مزبلة قصص الغرام لتسلية شيء جدّ وضيع وتافه، ويعنون به النساء. وعلى ذلك، أجيب إن كان الغرام خطيئة، فإني أقرّ

بفرح بأني أسعد الخاطئين. وأي ذنب لي إن كنت أجد فيكنّ كل ماهو جميل؟ وإذا كانت خطاياكن تبدو لي وشياً تزدان به فضائلكن، لمجرد أنها خطاياكن؟ وقد كان القدماء حصفاء، لما وضعوا في ربات الفنون كل جمال العالم وحكمته، وجعلوهن جميعاً، وهن تسع، في شكل امرأة. في نهاية المطاف، إذا كانت النساء يفتقرن إلى العقل والرزانة، كما يقول منتقدي، فَلْيُلْقُوا عليّ بهذا العبء اللذيذ، وليذهبوا هم بكل عبء الرجال وثقلهم.

أما الجريمة الثانية -حسب هؤلاء النقاد- هي أن كرامة مشيبي وهيبته لا تتلاءم وإضاعة الوقت واللهو بغراميات سخيفة جديرة بغلمان طائشين بطّالين داعرين، وليس برجال علماء ناضجين. وعلى هذا أجيب: هناك أعمار صالحة جداً للحب، وأعمار أخرى أقل صلاحاً. لكن أياً منها ليس سيئاً له. يكفيهم مثلاً على ذلك، رجال عظام شرّفوا مدينتنا مثل غيدوكا بالكانتي، ودانتي ألجييري اللذين عاشا حياة مديدة أطول مما عشت حتى الآن، فلم يخجلوا من أن يعيشوها مملوءة كلها برايات الحب السعيدة. أما بالنسبة لأعوامي، ربما أضافوا إليها أعواماً أُخَر (وهو عطاؤهم الوحيد)، فلم يكونوا في هذا مخادعين. لكن، لا يغرنكنّ لون شعري. فلربما كنت

مثل الكرّاث الذي، مهما كان رأسه أبيض، يظل ذيله أخضر دائماً. واعلمن أنّ من الغباء الحكم بالرأس على مايكتب بالقلب. وبالنسبة لهذا الأخير، فأنا آسف، لأنني لاأملك إلا قلباً واحداً. فلو كان لديّ مائة قلب لقدمتها إليكن كلها، مرة واحدة، ياسيداتي الحلوات.

يتهمونني، أخيراً، بحرية التعبير، آخذين عليّ استخدامي بشكل فجّ للغاية مااعتاد الآخرون على استخدامه منقّحاً ومزوّقاً جداً؛ وتعريتي عادات عصري بدلاً من أن أغطّيها بغطاء رقيق؛ وخضوعي لقوانين الطبيعة بدلاً من وضع أقنعة الثقافة الراقية. هذا هوس المرائين الأتقياء الذين يخشون الكلمات أكثر ممايخشون الأشياء. لاتوجد كلمة واحدة سيّئة في ذاتها. بل بالأحرى، نجد الخبث في أُذن من يسمعها، أوفي شفتي من ينطق بها.

أما العادات، فأنا لم أخترعها. أنا لم أصنع شيئاً سوى أن أعكسها بأمانة، كما تفعل المرآة. فإذا كانت هي متهتّكة، فليهتمّ نقّادي بإصلاحها بدلاً من رجم المرآة بالحجارة.

أما أن تكون السيادة للطبيعة، أم للثقافة، فأنا أفكر في أن أجيبكن بجواب ليس من عندي. يكفيني أن أذكر قصّة

فلورنسية قديمة بعنوان: «أوزات الأخ فيليبو». وهذه القصة، ياسيداتي، سأقدمها إليكن متطوّعاً دون أن أضعها في سلك القصص المائة الموعودة. وتقول القصة هكذا:

في سالف الزمان، كان في مدينتنا الجميلة فلورنسا، مواطن يدعى فيليبو بلدوتشي، فقد زوجه عند ولادة ابنه. أراد الإفلات مما نسميه: «تفاهات العالم»، وقرَّر أن ينسحب إلى كهف في جبل آسينيو، ويربّي ابنه هناك بعيداً عن كل شهوة جسدية، ويُنشأ في جهل تام لكل ماهو أرضي لبلوغ السماء من أقصر الطرق. فنشأ الشاب فيليبو إذاً، في ظلام الكهف دون أن يتذوق لذة، أويعرف إغراء، بالتالي، دون أن يرى امرأة، ولم يسمع باسمها أبداً.

ولما أتمّ الوحش البريء الثامنة عشرة من عمره، أراد أبوه الطيّب أن يختبر ثمرة هذه الثقافة الغريبة، وأتى به فلورنسا طالباً صدقة من أجل الصومعة. كان الفتى ينظر ذاهلاً إلى جمال العالم الذي كان يشهده لأول مرة، واستيقظت كل الأسئلة الراقدة فجأة: «أي وحش ضار ذاك الذي يرقص فرحاً، ياأبي؟» «هذا حصان يابُني»! «وما ذاك الطريق الذي يزحف يا أبي؟» «هذا نهر، يابُني»! «وذاك الذي يتلألأ، ياأبتِ؟» «إنه قصر ياولدي».

وهكذا حتى وصلا أبواب المدينة، لما شاهدا سرباً من النساء الجميلات قادمات من عرس، وهن يغنين ويضحكن مرحاً. وماإن رآهن الشاب فيليبو، حتى انقلب شاحباً لتوّه. «تنحّ يابني. إنها حيوانات خطرة». «ما اسم هذه الحيوانات اللطيفة، ياأبت؟». «لاأتذكر جيداً... وإنما أخمّن أنها تدعى... أوزات. لكن، سرْ أمامك يابني، ولاتلتفت إليهن: انظرْ كيف يشبّ ذلك الحصان! انظرْ كيف يتلألأ ذلك القصر!» «إلى الشيطان كل القصور، وكل الأحصنة! أنا أريد أوزّة ياأبي، أريد أوزّة!»

من يحسب أن الثقافة تغلب الطبيعة، فليسأل الأخ فيليبو.

كفاني مقدمات! لقد أفرطت في اعتذار طويل عن ذنب جد صغير. هذه الليلة، سأخرج لكنّ قصتي الأخيرة المعنونة ببساطة: «القرنان، المضروب والمسرور»، كيلا أهزأ من منتقدّي بكلمات سيئة الوقع على الأذن.

وإذا فكر بعض الرجال الغافلين الذين تسلّلوا إلى هذه القاعة، في الأمر جيداً، فلاتزال لديهم فسحة من الوقت لينسحبوا. أكرر: كلماتي موجّهة إليكن فقط، أنتن النساء

المباركات، مجد فلورنسا وفرح العالم. إليكن، أيتها الأوزّات اللاتي أيقظن في فيليبو الخالد ذلك الجزء المسمّى: قلب الرجل. (تنسحب المقدمة).

المشهد الأول

(غرفة في بيت إيْغنَو . في القاع ، شرفة بيضوية الشكل يغطيها لبلاب أزرق . إلى أحد الجوانب سرير فوقه ظُلّة . في الجانب الآخر ، صندوق كبير ومنضدة متحرّكة عليها لوحة شطرنج . الوقت ليل .)

إيْغنَو : شدّي الحزام جيداً ، يابرونيلا . مسافة الطريق ١٤ فرسخاً ينبغي لحصاني أن يقطعها عدواً .

بياتريس : أيمكنني أن أعرف ، يازوجي ، علامَ هذا السفر المباغت؟

إيْغنَو : أعمال تجارية بسيطة . سبق أن قلت لك .

بياتريس : أهكذا فجأة ، وفي عز الليل وبسرية تامة؟

إيغنو : السرية في بعض الصفقات لها أهمية السرعة نفسها . لماذا تسألين بهذا الإلحاح؟

بياتريس : لأني أرتاب جداً في كل ماتصنع . هذا الصباح ، ما

كنت تعلم شيئاً عن هذا السفر . وفي المساء كنت تتحدّث عن نزهة صيد ممكنة . ثم فجأة : هاتوا الحذاء والمهاميز . أسرجوا خير جيادي . عليّ أن أكون في «نزل الديك» عند الفجر . (تنظر إليه خائفة .) ألا تخفي عني شيئاً يازوجي؟

إيغنو : أأخفيت عنك شيئاً ذات مرة؟

بياتريس : ولِمَ لاتكون هذه المرة الأولى؟ من يضمن لي أن هذه الصفقة السرية تحمل في طيّاتها شراً؟ أو أن في نزل الديك ، تختبىء دجاجة ما؟

إيغنو : (يداعبها راضياً .) أتغارين؟ شكراً ياعزيزتي . يقال إن الغيرة علامة الحبّ الجيد .

بياتريس : في هذه الحالة ، أستطيع أن أظنّ بك سوءاً . لأنك لم تشعر بالغيرة أبداً .

إيغنو : سيكون سبّة لامرأة بأن تنادي بولونيا كلها بأنها أفضل الأزواج وأخلصهن . لكن ، إن كنت في شكٍ من أمري ، فسوف أشبع فضولك . (يُدّق الباب . صوت آنيتشينو .)

صوت : سيدي !

إيغنو : ادخل ! (يدخل آنيتشينو . يظل الخادمان اللذان يحملان مصابيح أوشمعدانات في عتبة الباب .)

آنيتشينو : أُسرج الحصان ، وليس لديك وقت تضيعه .

إيغنو : انتظر لحظة ! (لبياتريس .)أتثقين بكلمة وكيلنا؟

بياتريس : ثقة كاملة . لم أسمع من شفتيه كذبة واحدة أبداً .

إيغنو : حسن جداً . قل ياآنيتشينو المخلص ، لسيدتك ، سبب سفري المباغت .

آنيتشيو : ينبغي لسيدي إيغنو أن يصل نزل الديك قبل أن يغادر بعض التجار الذين يبيتون فيه هذه الليلة ، حاملين كمية من البهارات والسجاد الشرقي . من المهم أن يشتري سيدي هذه البضاعة غداً قبل الشروق .

بياتريس : ألا يمكنه أن يفعل ذلك بأناة وعلى مهل حين يصل هؤلاء التجار إلى بولونيا؟

آنيتشينو : إذاً ، سيكون الوقت قد فات . وصلتنا أخبار جديرة بالتصديق ، أن أسطول البندقية الذي كان يحمل شحنة من كاتاي وقع في أيدي الأتراك . ومتى يُعلم ذلك في السوق ، ترتفع قيمة هذه البهارات كالزبَد . ويستطيع معلمي أن يبيع في الليل بعشرين ألف إسكودو ، ما

اشتراه في الصباح بعشرة آلاف .

بياتريس : أهذا مايُسمى سرقة؟

آنيتشينو : هذا ما نسمّيه تجارة . وإذا نظرنا إلى الأمر جيداً ، نسميه عملاً وطنياً . ستكون مناسبة لنبيّن مرة أخرى ، أن بولونيا الروحانية المثقّفة ليس لديها مايدعوها إلى حسد البندقية التجارية المترفة .

إيغنو : أحسنت ، ياآنيتشينو . أنت ذكي على شكل عجيب ، حتى أنك تقول دائماً ماأفكر فيه .

آنيتشينو : شكراً ، ياسيدي . أنا بالانتظار تحت . سيكون شرفاً لي أن أمسك بركاب من أدين له بكل ماأملك . (يحيّي بياتريس باحترام ويخرج .)

إيغنو : أيرضيك ذلك؟

بياتريس : نعم ، أشبع فضولي ، لكنه لم يعجبني . إذا كان يبدو لك أن الوحدة رفيق يكفي . . .

إيغنو : ماذا تريدين أن تقولي؟

بياتريس : لست أدري . لكن ، ماأدفأ هذه الأيام الأولى من أيام الربيع ! للهواء رائحة جد عميقة حين يحتكّ باللبلاب الأزرق في الشرفة .

إيغنو : دعيك من الترّهات . عشرة آلاف دوكادو تساوي حقاً ليلة واحدة!

بياتريس : ربما . ليس لدينا ـ نحن الأزواج ـ فكرة واحدة عما تعنيه ليلة من الليالي . (تناوله المعطف .) سفر سعيد، يازوجي!

إيغنو : وداعاً ، يابياتريس . لاتخشي شيئاً في غيابي . سيسهر آنيتشينو عليك وعلى بيتي كأنني موجود . هيّا، يافتيان .

برونيلا : ليكن رفيقك سان كريستو بالون شفيع المسافرين! (يخرج إيغنو يتبعه الخدم . تتمطّى بياتريس خفية ، وتخفّف من ملابسها .) أستنامين ، ياسيدتي؟ أتريدين أن أدفّئ الشراشف فوق المنقل؟

بياتريس : ولأي شيء؟ إنها ليلة لطيفة .

برونيلا : ولوكانت . سرير دون زوج ، هو سرير بارد دائماً .

بياتريس : تقولين ذلك بثقة كبيرة .

برونيلا : ذلك أني ثلاث مرات ترمّلت .

بياتريس : ليس البرد مايُجفل النوم من جفني ، وإنما الخوف .

برونيلا : سأغلق الشرفة . كانت أمي تقول دائماً إن العشاق والخوف تأتي من الشرفات .

بياتريس : أكانت أمك هلوعة؟

برونيلا : كانت مجرّبة . (تغلق الشرفة .) أ أساعدك على خلع ملابسك؟

بياتريس : لايزال الوقت باكراً . (تتثاءب برونيلا .) أتشعرين بنعاس شديد؟

برونيلا : لاأدري مايحدث لي هذه الليلة . نعاس أوهوام كالذي يشعر به المرء في الشتاء حين يشرب خمراً دافئاً .

بياتريس : ليتني أستطيع أن أقول مثل قولك . غير أنني أحس بأنني لن أستطيع النوم . هذه أول مرة أنام وحيدة مذ تزوّجت .

برونيلا : أتريدين كتاباً يعيد إليك التوازن ويشتّت هذه الأفكار؟ في غرفتي كتاب عن حياة سانتا ماريا المجدلية .

بياتريس : لاأريد قصص قديسين . فهي تحكي في العادة حكايات رديئة جداً . الأفضل أن أسترد قواي بقليل من الموسيقى . (تأخذ العود . تغني لحناً حزيناً . آنيتشينو يتنصّت من الباب حتى نهاية اللحن .) أوه! أكنت تسمعني؟

آنيتشينو : وإلى حيث أمكنني أن أستمع ، لما نظرت إليك .

بياتريس : شكراً . أهذا كل مالديك من القول لي؟

آنيتشينو : ارتحل سيدي ، وانسحب الخدم ليستريحوا . ألديك شيء تأمرينني به؟

بياتريس : لاشيء . أ أغلقت كل الأبواب جيداً؟

آنيتشينو : بقفل مزدوج . إذا شعرت بخوف خلال الليل ناديني دون انتظار . أنا لن أنام ، وسوف أسهر على راحتك .

بياتريس : أنت لطيف دائماً .

آنيتشينو : أنا خادمك .

بياتريس : لست خادماً . أنا أرى فيك صديقاً ومستشاراً أكثر منك وكيلاً . إذا كنت تريد أن تصنع شيئاً من أجلي ، تعالَ نلعب الشطرنج : فالرقعة تنتظر .

آنيتشينو : ماكان بمستطاعك أن تعرضي عليّ شيئاً خيراً من ذلك .

بياتريس : لكن ، بشرط أن تتعامل معي على أني خصم ندّ لك .

آنيشينو : لاأفهم .

بياتريس : أوتظن أني لم ألاحظ؟ إذا لعبت مع رجل، فأنت لاتخسر أبداً. أما حين تلعب معي، فتجعلني أربح دائماً. لاأريد أن أحصل بالمجاملة على مايجب الحصول عليه عن جدارة .

آنيتشينو : قبلت التحدّي . مستعدّة؟

بياتريس : مستعدة . (تلعب) . بيدق الوزير أول ضحيّة .

آنيتشينو : لايمكن أن يتلقّى ميتة خيراً منها .

بياتريس : (تلاحظ أنه ينظر إليها بإمعان ويتنهّد .) لكن، إلى أين تنظر؟ لعل رقعة الشطرنج في عيني؟

آنيتشينو : عفواً! (يلعب)

بياتريس : إذا لم تركّز انتباهك، لاأتنبأ لك بشيء حسن . خسرت بيدقاً جديداً .

برونيلا : (تتثاءب .) أيوجد كثير من البيادق في هذه اللعبة؟

بياتريس : حسب نعاسك، كثير جداً . يمكنك أن تنصرفي، يابرونيلا .

برونيلا : شكراً، ياسيدتي . طاب ليلك، سيدي الوكيل . (تخرج متثاقلة، وتغلق الباب .)

بياتريس : حصان ملككَ في خطر!

آنيتشينو : أعيده!

بياتريس : لكن، أين عـقلك هذه الليلة؟ ألا ترى أن البيـادق البيض لي؟

آنيتشينو : إذاً، لامخرج لي. (ينظر إليها ويتنهّد مرة أخرى.)

بياتريس : تنهيدة أخرى؟ أكل ذلك تؤلمك خسارة الحصان؟

آنيتشينو : آلام أخرى أعمق تبعد عني الهدوء. أفكّر في صديق يقامر بقلبه وحياته هذه الليلة، بل هذه الساعة، أمام منضدة كهذه.

بياتريس : علاقة غريبة. أهو لغز؟

آنيتشينو : بل هي قصة حب.

بياتريس : رائع! تسحرني القصص. أتريد أن تقصها عليّ؟

آنيتشينو : إنها قصة محزنة.

بياتريس : تسحرني القصص الحزينة، خاصة إذا انتهت نهاية حسنة.

آنيتشينو : هذه لم تنتهِ بعد.

بياتريس : إذاً، هناك أمل. كشْ الوزير. إني استمع.

آنيتشينو : (يتنهّد طويلاً.) بدأت القصة في فرنسا منذ ثلاث

سنوات، قرب نار مدفأة. صديقي كان ينحدر من أسرة فلورنسية نبيلة. وكان يحيا في باريس حياة طلاب مرحة، دون أن يعرف مذاق دمعة بسبب الحب، إلى أن سمع ذات ليلة، لأول مرة، بعض الفرسان العائدين من القدس، وهم يتحدثون عن امرأة مجهولة عجيبة غيّرت مجرى حياته كلها. كشي الملك.

بياتريس: (تنّحي رقعة الشطرنج.) وماذا يهم الملك الآن؟ أفضل باريس والنساء العجيبات المجهولات وفرسان بيت المقدس. تابع.

آنيتشينو: كان أولئك الفرسان يحكون عن العجائب التي شاهدوها في أسفارهم. بعضهم تحدّث عن إنكلترا الشقراء، وآخرون عن إسبانية الوضيئة، وثالثون عن إيطاليا المرحة. لكنهم كانوا متّفقين جميعاً على شيء واحد: خير أرض في الدنيا إيطاليا. وخير مافي إيطاليا بولونيا. وخير مافي بولونيا امرأة ذات جمال وظرف من أجلها وحدها تهون مشاقّ السفر وآلام الاغتراب.

بياتريس: أكلّ ذلك؟

آنيتشينو: هذا ماكان المسافرون يؤكدونه بصوت واحد. وقد

أثّرت كلماتهم في قلب صديقي حتى لم يعرف طعم العيش منذ تلك اللحظة إلا من أجل غاية واحدة. فكان يفكر فيها وهو مستيقظ، وكان يفكر فيها وهو نائم. وأخيراً، غادر بيته وركب حصانه، واتخذ طريقه إلى إيطاليا بحثاً عن سيدة أحلامه. المسافة بين باريس وبولونيا أربعة عشر يوماً إذا سار الحصان خبباً.

بياتريس: من فضلك، اجعلِ السير عَدْواً. إنني أتحرق لمعرفة النهاية.

آنتشينو: النهاية كانت أن وصل إلى بولونيا وراح يبحث عنها عبثاً أياماً وأياماً. فكان يشهد الاحتفالات، ويزور الكنائس، ويلتهم بعينيه النوافذ، إلى أن عثر عليها أخيراً، وهي تطلّ ذات مساء من شرفتها وسط اللبلاب الأزرق.

بياتريس: حمداً وشكراً لله. أوكانت جميلة حقاً كما سمع عنها؟

آنتشينو: بل أجمل مما سمع. إذا كانت مياه البحر قد تحولّت ذات يوم إلى عيون، والمطر والشمس إلى شعر، فقد كان يوم ولدت تلك المرأة. (يتنهّد.) لسوء الحظّ،

كانت متزوجة بتاجر غني .

بياتريس : هؤلاء الأزواج غير مناسبين دائماً !

آنيتشينو : لاتظنّي أن المحب المتحرق قد تخلّى عن مشروعه بسبب ذلك . فعلى العكس ، كلما اشتدّت الحراسة حول الثمرة ، كان الإغراء أكبر . أكانت السيدة تدرك ذلك الحب المجنون؟ أم يكون الازدراء والنكران في انتظاره بعد رحلة طويلة؟

بياتريس : كيف يمكن لصديقك أن يخامره هذا الشك السخيف؟ يضع الأجانب ظنهم في أريحيّة رجالنا ، لكن امرأة بولونية أصيلة ، لاتدع مسافراً يموت عطشاً أبداً ، إذا كان الماء في يديها .

آنيتشينو : ذلك ماكان يأمله صديقي . ولما علم أن خير طريق لبلوغ قلب امرأة متزوّجة هو غزو قلب زوجها أولاً ، فقد تخلّى عن ثياب النبلاء ، وتخفّى بثياب خادم وعرض نفسه ليعمل عنده .

بياتريس : رجل نبيل ينظّف الإسطبلات؟ يالدرس في الحب جميل !

آنيتشينو : كانت وسيلته الوحيدة ليدخل البيت ويتأمل عن

قرب السيدة البعيدة المنال. وماذا يهمّ ذل الإسطبلات إذا كان الثمن أن يحظى ببسمتها؟ وأية متعة أكبر من متعة تجهيز حصانها، إذا كان يستطيع أن يداعب نعلها حين تضع قدمها في الركاب، أو يحسّ في وجهه خفقة تنّورتها؟ قضى ثلاث سنوات في خدمتها هكذا، وهو يحبها في صمت صاعداً سلّم الخدمة درجة درجة حتى نال ثقتها وعُيّن وكيلاً.

بياتريس : أقلت: وكيل؟ وزوج تاجر..؟ وشرفة فيها لبلاب أزرق؟ (تنهض فجأة، قالبة قطع الشطرنج.) ياللسماء! ماهذا الفخ الذي نصبته ياسيد آنيتشينو؟

آنيتشينو : قصة محبّ فقد عقله، ويطلب الصفح منك عن جنونه.

بياتريس : يعني، صديقك المشهور هو أنت ذاتك؟ والمرأة المجهولة العجيبة؟

آنيتشينو : (راكعاً) سيدتي بياتريس ديغالوتزي! فخر بولونيا وقلب الدنيا!

بياتريس : وتواتيك الجرأة والوقاحة وتعترف لي بذلك في حجرتي الخاصة؟ إن كان شرفي يهون عليك جداً، ألا

تخشى غضب زوجي الذي سيكون سريعاً وعاجلاً؟

آنيتشينو : مهما يكن سريعاً، فلن يكون قبل الغد. ليلة بقربك تساوي حياة بكاملها!

بياتريس : ألا تفكر في أني قد أدعو خدمي وآمرهم بجلدك؟

آنيتشينو : كل خدمك غارقون الآن في نوم عميق!

بياتريس : لابأس! أأنت متأكد؟

آنيتشينو : استبقت الأمور فوضعت بعض الذرور في كؤوس الخمر.

بياتريس : ومشروبات أيضاً! احتياط معجب! أهذا هو الصديق الذي وضع فيه زوجي خالص ثقته؟ أهو الرجل الذي لم تخرج من فمه كذبة واحدة قط؟ (ترفع ذراعيها بيأس) آه! ياللنساء المسكينات الغافلات! وأستطيع القسم على أن هذا السفر اللعين كان من تدبيرك ليخلو لك الجو.

آنيتشينو : أبقيت لدي وسيلة أخرى، إن كان لايفارقك فتراً واحداً أبداً؟

بياتريس : إذاً، هي كذبة أيضاً العشرة آلاف إسكودو وبضائع البهارات؟

آنيتشينو : والسفن التركية، إن شئت الدقة، وكذلك جمهورية البندقية الغنيّة! الحقيقة الوحيدة في ذلك، هذا الهوى الجموح الذي لايعبأ بشيء. أقدم لك حياتي. فإن كنت تجدين في ذلك إهانة، اقتليني بنفسك. ويامرحباً بالموت إن تمّ بهاتين اليدين.

بياتريس : (تنتحب على الأريكة.) يالبؤسي! أنا ضعيفة ووحيدة! ماذا بقدرة امرأة ضعيفة أن تصنع إزاء داعر مثلك؟

آنيتشينو : هذا ليس صحيحاً. أنا سيد محترم. ولاتخشي أن أحصل بالقوة على ماآمل الحصول عليه برضاك!

بياتريس : أنا لاأخشى قوتك. وإنما أخشى ما أخشاه أن يجتمع كرمي وشفقتي عليّ ويؤديا إلى هلاكي. ألاتدرك، ياعدو راحتي وهدوء بالي، أنّي أحسست أيضاً بالاضطراب قربك منذ اليوم الأول؟ وأني كنت أرتعد، كلما أحسست بيدك تداعب حذائي، ووجنتك تلامس تنّورتي؟

آنيتشينو : أسمعت أذناي؟ أم هو حلم؟

بياتريس : كانت عيناك تفضح علناً ماتحاول شفتاك إخفاءه

عبثاً. منذ اليوم الأول، خمّنت فيك نبيلاً ومحباً مقنّعاً. وكنت أتوقّع أن نصل آجلاً أم عاجلاً إلى هذا الوضع. كنت أنتظر ذلك بخوف... وهاهو قد حضر. آي، ياالتعاستي! يالحظة شؤمي!

آنيتشينو: (يهرع لمواساتها.) أجمل لحظة في حياتي وحياتك! لماذا تبكين، ياكنزي؟

بياتريس: هذا واجبي. أبكي على شرفي المفقود. وأبكي خاصة على زوجي المسكين الذي كان شرفه لايزال مصوناً حتى هذا المساء، وغداً سيكون قرنان مداناً دون أن أستطيع أن أصنع شيئاً يجنّبه ذلك...

آنيتشينو: تباركت الشفتان اللتان لفظتا هذه الكلمات الجميلة! ياحلمي الحلو.

بياتريس: ياحبي! (يتبادلان القبل. يُسمع قرع مطرقة على الباب التحتي. بفزع.)

آنيتشينو: أفي هذه الساعات؟

بياتريس: ياللسماء! لقد هلكنا!

آنيتشينو: لاتخافي. قد يكون ابن سبيل ضلّ طريقه.

بياتريس: أبداً. قرأت أن المحبين حين يتعانقان ويسمعان دقّاً

على الباب، فذلك يعني عودة الزوج دائماً. (تهرع إلى الشرفة.) ألم أقل لك؟ إنه زوجي! هاهو يفتح الباب بالمفتاح الكبير. (توقّف آنيتشينو الذي يهرع صوب الباب.) لن تهرع عبر السلم. ماذا عساه يظن إذا التقى بك خارجاً في هذه الساعة من غرفي؟

آنيتشينو : عبر الشرفة!

بياتريس : ولاهذا أيضاً. الليلة مقمرة ويُمكن أن تُرى. أتريد أن تنشر شرفي في الريح كملاءة فضيحة؟ (تفتح صندوقاً كبيراً) ستنزل هنا!

صوت إيغنو : (مقترباً) بياتريس.. بياتريس.

بياتريس : أسرع! إنه صاعد! اسكت. (يتبادلان القبل بسرعة. يختبىء آنيتشينو في الصندوق. يدخل إيغنو مسحوقاً محطّماً شاكياً. تُهرع بياتريس للقائه مبالغة في إبداء تأثرها.) زوجي الجميل! أأنت جريح؟ أأحدث لك مكروه؟

إيْغنو : لاخطر في الأمر يا عزيزتي. اطمئني! اطمئني! (يفكّ محمل السيف، ويجلس متألماً.)

بياتريس : لكن، مالوجهك شاحباً،.. ومالثيابك ممزّقة.. أسطا عليك اللصوص؟

إيغنو : بل مــاهو أســوأ من اللصــوص. تخـيّلي أن بعض المعتوهين أشعل النار في الغابة، وانطلقت نفحة من الشرار أعمت حصاني. فأفلت زمامه وأسقطني أرضاً وجرّني مسافة مهمة ورجليّ في الركّاب. آي! يالأضلاعي المسحوقة!

بياتريس : أيوجد كسر آخر خطير؟

إيغنو : هذا يعتمد على ماتسمينه خطيراً. أتبدو لك الأضلاع شيئاً قليلاً؟

بياتريس : إذا كنت لاتعاني سوى ذلك، فسأفركها بالسذّاب. وهو دواء ناجح للرضوض.

إيغنو : وحصاني الأعمى؟ والصفقة الضائعة؟ آه! يافقراتي المسكينة! لعن الله هذه الليلة وهذا السفر.

بياتريس : لاتلعن يازوجي. لوفكرت في الأمر جيداً، لشكرت الله أن أعادك إلى بيتك في هذه اللحظة ذاتها. (يشرق وجهها.) الآن، صرت أرى الأمر بوضوح: الحريق في الغابة... والحصان الجامح.. ما أعجب الطرقَ الإلهية لإنقاذنا! شكراً ياربي، شكراً!

إيغنو : وكان ينقصني هذا! أهي بركة من السماء خسران عشرة آلاف إسكودو وتحطّم أضلاعي؟

بياتريس : معجزة حقيقية! ألاتدرك أيها الجاحد، أن هبّة النار كانت يد الله تحذّرك بأنك يجب أن تكون هنا دفاعاً عن شرفك؟ (يرفع آنيتشينو غطاء الصندوق ويستمع ذاهلاً.)

إيغنو : ماعلاقة شرفي بكل ذلك؟

بياتريس : أكبر مما تخيّل. والآن ستراه. أجبني بصفاء: أيّ خدمك يبدو لك أرفع شرفاً وأكثرهم إخلاصاً؟

إيغنو : سؤال جميل! تعرفين جيداً أن الأثير عندي وعندك: آنيتشينو!

بياتريس : أأنت واثق بأنه جدير بالثقة التي وضعناها فيه؟

إيغنو : أراهن على قطع يدي. آنيتشينو ليس وكيلي فقط، وإنما هو خير أصدقائي. إنه أخي. وإذا عجزت ذات يوم عن إدارة شؤون بيتي، فلن أختار غيره ليحتل موقعي.

بياتريس : لكن، أي موقع منها أيها الشقي؟ هناك مواقع لايستطيع الزوج أن يوكلها لأحد بعده.

إيغنو : دون ألغاز يا بياتريس. بماذا تريدين أن توحي؟

بياتريس : ماتشتبه فيه أنت ذاتك. ذلك أن وكيلك وصديقك وأخاك ماهو إلا دجّال حقير. بل هو أحقر صعلوك في

الدنيا وأعدى عدو لراحة بالك. (يرسم آنيتشينو شارة الصليب شاحباً ثم يختفي.)

إيغنو: كاذبة!

بياتريس: لديّ براهين! انتهز فرصة غيابك، و واتته الجرأة هذه الليلة وفي هذا المكان، على أن يطلب إليّ أشياء لاتستطيع شفتا امرأة أن تردّدها.

إيغنو: مستحيل! لعل طهارة شرفك ضخّمت لك بعض عبارات الإطراء البسيطة!

بياتريس: عبارات الإطراء، تقول؟ تصريح حار! كلمات تخدج الحياء! اقتراحات جدّ إباحية حتى تحمرّ منها خجلاً جبهة كاردينال من فلورنسا! (تنتحب).

إيغنو: (غاضباً.) كفى! إن كان ماتقولين صحيحاً، فوالله لن يرى نور الشمس أبداً.

بياتريس: (متظاهرة بأنها توجّه الحديث إلى إيْغنَو، لكنها في الواقع، تطمئن بذلك آنيتشينو الذي أطلّ مرة أخرى متوسلاً.) اهدأ، ياعزيزي! أهدأ ياحبّي الوحيد! أدرك أن اضطراري إلى قول ذلك مخيف، لكنني، أقسم لك، قمت بذلك من أجل مصلحتك، ولراحة بالنا.

إيغنو: هاتِ السيف فوراً. (يجرّده.) أين هذا الوضيع؟

(آنيتشينو يطبق الغطاء فجأة.)

بياتريس : لست بحاجة إلى السيف الآن، وإنما إلى الحيلة. البس ردائي هذا.

إيغنو : أنا؟ أيبدو لك مناسباً أن أتخفّى؟

بياتريس : ستفهم الأمر فوراً. اسمع، آنيتشينو كان فاقداً السيطرة على نفسه، وخشيت أي تصرف جنوني منه لو رفضت طلبه. وتظاهرت حينئذ أني استجبت لرغباته، وواعدته أن ألتقي به في الحديقة. وستعلم أن ذلك كان مجرد حيلة لإبعاده عني. حسن! والآن، هاهي الفرصة في يدك: اهرع إلى المكان الموعود مرتدياً ثيابي، وهكذا تستطيع أن تسمع القحة والوضاعة من شفتيه ذاتهما. وإذا قتلته بعد ذلك، فلن يعذّبك الشك في أنك قتلت بريئاً.

إيغنو : فكرة ممتازة! ما أبدع أفكار النساء! هات هذا الرداء (يلبسه بمساعدتها، في سرعة وتعثّر.) أين مكان الموعد؟

بياتريس : في حديقتي الخاصة. عند بوابة السياج. خذ المفتاح.

إيغنو : وفي إية ساعة؟

بياتريس : عند منتصف الليل . حين تدقّ ساعة سانتو دومينغو الثانية عشرة . ليس لديك وقت تضيعه .

إيغنو : هل اتفقتما على إشارة ما؟

بياتريس : هو سيقلّد صوت الكوكو ثلاث مرات . وأنت ستحرك هذا المنديل الصغير ثلاث مرات ، وتجيب بصفير ضفدع .

إيغنو : كان بإمكانك أن تجعليها أقل تعقيداً .

بياتريس : ربما لا أملك هذا الذوق المرهف .

إيغنو : (يفرغ من ارتداء الملابس .) أأبدو في وضع جيد هكذا؟ ألن يلاحظ الخديعة؟

بياتريس : انتبه إلى القدمين والساقين . هي أشد أعضاء الرجال فظاظة . وامش بخطا صغيرة ، هكذا . حرك المنديل بلطف ، هكذا . ولا تتكلم كلمة واحدة بل صفّر . ظلام الحديقة سيكون في عونك . (تتراجع وهي تتأمله .) يا إلَهي ! . . . وهذا الرأس؟

إيغنو : ماذا فيّ؟

بياتريس : لاشيء حتى الآن . لكن هذا الشعر القصير جداً . . .

إيغنو : سأضع على رأسي «شالاً» . ألا يوجد شال في هذا

الصندوق؟ (يتجه عازماً فتحه. تصرخ هي صرخة فزع. يلتفت إيغنو وقد جمد في مكانه. ينتهز آنيتشينو تلك اللحظة ويخرج «الشال» بسرعة ثم يختفي مرة أخرى.) ماهذه الصرخة؟

بياتريس : لاشيء ياعزيزي. إنه الفزع مما كان سيحدث بسبب خطئي. هاهو الشال.

إيغنو : (بجلال.) والآن، صلّي صلاتك، وانتظري. لقد قمت بواجبك كزوجة صالحة. وأنا سأؤدي واجبي كرجل! (يخرج مرحاً واضعاً الشال على رأسه. تقفل بياتريس الباب بالمفتاح. يقفز آنيتشينو من الصندوق مذعوراً.)

آنيتشينو : ماذا صنعت يامغفّلة! لقد أطحت بكل شيء بعدم احتراسك!

بياتريس : على العكس. ألم تفهم الأمر بعد؟ الآن سنخدعه بالضبط حين نحتاج إلى زيادة ثقته بنا.

آنيتشينو : وبسبب ذلك، وشيتِ بي؟ ليأخذني الشيطان إن كنت أفهم؟

بياتريس : لاأستغرب ذلك. للحب هذه الفضيلة النادرة في أنه يعمي أبصار الرجال ويفتح عيون النساء. (تمسك ملقطاً

لإطفاء الشموع . ثم تطفئ الأضواء بهدوء .)

آنيتشينو : ينبغي لي أن أهرب فوراً .

بياتريس : مستحيل . الباب مقفل .

آنيتشينو : وإذا عاد وفاجأنا معاً؟

بياتريس : لن يتزحزح عن موضعه حتى الثانية عشرة . إذا لم أخطئ الحساب ، لاتزال أمامنا نصف ساعة طويلة .

آنيتشينو : لكن ، إلى أين تريدين أن تصلي في مهزلتك؟ ماذا سيحدث هذه الليلة في الحديقة؟

بياتريس : ماسيحدث ستعرفه فيما بعد . خلال ذلك ، انفخ على هذا الشمعدان ، من فضلك .

آنيتشينو : ولأي شيء .

بياتريس : بسبب الحياء ، ياعزيزي . الحياء! (يعانقها وينفخ بقوة تطفأ كل الأضواء . موسيقى .)

(ستارة)

المشهد الثاني

حديقة لها سياج من ريحان، ينفتح فيه باب مموّه.
على أحد الجانبين ممر يؤدي إلى البيت.
في الظلّ المضاء بضوء القمر، يتمشى إيغنو قلقاً مرتدياً ثياب امرأة.

يُسمع في الممر صوت بياتريس تنادي بصوت كالهمس.

صوت بياتريس: حبيبي! . . . أنت هنا، ياحبي؟ (يغطّي إيغنو وجهه بسرعة بالشال، ويتخذ وضعاً أنثوياً ويجيب بتحريك المنديل. تخرج بياتريس.)

إيغنو: عفواً! همسات الليل وهذه المغامرة أثارت الاضطراب في حواسي.

بياتريس: حتى لم تميّز صوتي؟

إيغنو: أصبحت لا أميّز صوتي نفسه. منذ لحظة أفلتت مني زفرة، والتفتّ مذعوراً ظناً مني أنها زفرة شخص

آخر. أرى عيوناً تتربّص، وماهي غير الحباحب. أسمع همسات تناديني، وماهي إلا فراشات. أبقي وقت طويل؟

بياتريس: إنها على وشك أن تدق الساعة الثانية عشرة!

إيغنو: كم يطيل الانتظار ونفاد الصبر الوقت! يبدو لي أني مكثت قرناً.

بياتريس: على العكس مني. فقد بدالي أنه دقيقة واحدة تقريباً.

إيغنو: اسكتي! . . . (يتنّصت. بصوت خفيض.) أتسمعين شيئاً يزحف؟

بياتريس: إنه خرير النهر.

إيغنو: وهذه الأصابع التي تحتكّ بالباب؟

بياتريس: إنه حفيف الشجر. (يتنفّس إيغنو بارتياح. يتنصّت مرة أخرى فجأة.)

إيغنو: والآن؟ ألا تسمعين شيئاً. شيئاً هكذا. . . ألا تسمعين؟

بياتريس: هذه المرة، نعم.

إيغنو: ماهو؟

بياتريس: الصمت!

إيغنو : لم أتخيل الأمر مقلقاً على هذا الشكل أبداً . أتعلمين فيما أفكر؟

بياتريس : أعلم ماترغب فيه : ألا يأتي . . .

إيغنو : صدقت . ألايكون قد خجل من فعلته القبيحة ، ثم تاب وندم عليها؟

بياتريس : لاتتوقّع ذلك . في مسائل الحب ، أكثر الخلق يتوبون فيما بعد ، ولا أحد منهم يعلن توبته قبل ذلك الميعاد . (تسمع دقات الثانية عشرة في برج بعيد .) منتصف الليل في كنيسة سانتو دومينغو . آن الآوان!

إيغنو : اختبئي . من هناك تستطيعين أن تسمعي دون أن يلمحك .

بياتريس : تشجّع ، يازوجي العزيز .

إيغنو : لحظة : كيف هو صوت الكوكو؟

بياتريس : كما يغنّي في أول أيام الربيع .

إيغنو : معلومة لطيفة! والضفدع : كيف يصفر؟

بياتريس : مثل نغمة (لا) في الفلوت . هكذا! (تسمع صفرة . تنسحب بياتريس إلى الممر . يغطّي إيغنو وجهه مرة أخرى ويعود إلى وسط المسرح . فترة صمت بسيطة بعد الدقة الثانية عشرة ، يُسمع صوت الكوكو ثلاث

مـرات . يلوّح إيغنو بمنديله ويجـيـب بثـلاث صـفـرات مبحوحة .)

صوت آنيتشينو : بياتريس! بياتريس! (تجيب صافرة .) أأنت هنا ، ياقبرّتي الحلوة؟ (صـفـرتان .) أتحملين في جيبك مـفـتـاح الفـضـة الذي سيفُـتح به هذا البـاب الأخـضـر؟ (يرفع إيغنو المفتـاح عـاليـاً . ويصـفـر مـؤكـداً .) افـتـحي ياعزيزتي! عيناي وشفتاي تتلهّف جوعاً إليك . (يفتح إيغنو وينسـحب خـجـلاً مـخـفـيـاً وجـهـه . يدخل آنيتشينو .)

آنيتشينو : وأخيراً! كنت أخشى أن يكون وعدك مـجـرد حلم سببّته الحمى . لكن ، كلا! هاهو ظلام الليل يضاء . إني أحس التـوسّل المرتعش في عـينيك تحت هذا الغطاء من الحـيـاء . لمَ هذا الخـوف الذي يشـبـه خـوف ظبـيـة محاصرة؟ ألست على استعداد لبذل كل شيء؟ (صفرة إيجاب .) اقسمي لي أنْ لاشيء سيوقفك : لاالخوف من الخطر ، ولاالإخلال بهدوء بيتك ، ولافقدان الثقة الواجبة لزوجك . أتقسمين على ذلك؟ (صفير . يغير آنيتشينو لهـجته فـجأة ، ويجرّد عصا كان قد خبأها .) أيتـهـا البـائسة! إذاً ، شكوكي كـانت في مـحلّها! أيتـهـا

العاهرة الوضيعة، والحقيرة الداعرة. (يضرب إيغنو الذي يحاول الهرب.) ألم تدركي، يا حمقاء، أن إعلان حبّي الزائف كان حيلة لاختبار حقيقة فضيلتك؟ أتظنّينني قادراً على خيانة من أدين له بالجاه والثروة كما تخونينه أنت؟ خذي أيتها المرأة الخسيسة، الجاحدة الخاطئة! (يخنق إيغنو صرخاته، محاولاً الهرب ويسقط متعثّراً بالتنورّة.)

إيغنو: اشفق عليّ! ارحمني!

آنيتشينو: ألا تخشين ياجبانة أن أشي بك إلى زوجك. لن أفعل ذلك لأوفر عليك ذل الفضيحة، لكن خيانتك لن تمرّ دون عقاب. (يضاعف من ضرباته بالعصا.) أيتها الفاسقة الفاجرة! ياثعلبة فاقدة الحياء.

إيغنو: النجدة! يابياتريس! النجدة!

بياتريس: (تتقدم رافعة ذراعيها.) كفى! ياآنيتشينو، بحق الله، كفى!

آنيتشينو: (يتصنّع الدهشة.) ماذا ترى عيناي؟ أهي بياتريس أخرى؟ لكن، من أنت إيتها المنكودة؟

إيغنو: أأنت أعمى، حتى لاتعرف سيدك؟

آنيتشينو: يا الله! ميسّر إيغنو! أأنا في حلم أم هذا سحر؟

إيغنو : (ينهض شاكياً نازعاً الغطاء والشال.) تركتني يابني، في حال حتى صرت لاأعرف نفسي. آه! من هذه الليلة الليلاء! أسقطني عن متنه خير جيادي، وضربني بالعصا خير أصدقائي!

آنيتشينو : وأنا شتمت الرجل الذي أبذل روحي وحياتي فداء له. (يرمي بالعصا. ويسقط راكعاً.) اقطع ياسيدي هاتين اليدين الخاطئتين اللتين أساءتا إلى من تجلاّه غاية الجلال.

بياتريس : انهض ياصديقي، زوجي اطّلع على كل شيء. وهو لن يضنّ عليك بالصفح.

آنيتشينو : سأنال صفحه وعفوه وأنا راكع، وأقبّل الأرض التي يطؤها.

إيغنو : لن يكون ذلك. تعالَ إلى ذراعي، ياأخي. (يتعانقان) مؤسف أن روحاً في هذا النبل لها يدان شديدتا البطش.

آنيتشينو : اسمح لي أن أشرح لك هذا الالتباس.

إيغنو : لاحاجة بك إلى ذلك. لقد نقلت إليّ بياتريس كل شيء. وإذ ظننتك خائناً، دبّرت هذه الحيلة لمفاجأتك بالجرم الفاضح.

بياتريس : اصفح عني! إذْ أسأت إليك بهذه الظنون.

آنيتشينو : أنا المذنب الوحيد في هذا الإشكال المشؤوم.

إيغنو : كل منا كان مذنباً شيئاً قليلاً. أنت لشكك في بياتريس. وأنا وزوجي لشكّنا فيك. لحسن الحظ قد اتضح كل شيء. وإذا كنت حتى اليوم خادمي، فإنك منذ الآن ستكون رفيقي في كل شيء.

آنيتشينو : شكراً ياسيدي. تباركت السماء التي حولّت ليلة تعيسة إلى أجمل ليلة في حياتي.

إيغنو : تباركت ألف مرة، أقول أنا. ماذا يهمّ حصاني الأعمى وأضلاعي المهشّمة، إن كنت أستطيع الآن أن أقسم، ويداي في النار إنك أخلص الأصدقاء قاطبة، وزوجي أوفى الأزواج كافة؟

بياتريس : لنفْرح بذلك جميعاً. أمسك يدي هذه ياعزيزي، وامسكي أنت اليد الأخرى. هذه أول مرة يجعل الحب ثلاثة أشخاص مسرورين في آن واحد. (يدخلون البيت فرحين.)

(ستار)

حكاية السر المحفوظ
«من التراث الشعبي»

الشخوص

برونو
خوانيلو
ليونيلا
سَنْدرا
آمونتا
ليسيتا

مطبخ في قرية. حلّة كبيرة لتبييض الثياب. موقد وفرن وصندوق كبير من البلوط، وكومة من الأكياس، وخُروج وجهاز دواب معلقة بأوتاد من خشب. الوقت منتصف النهار. تُسمع دقات الساعة الثانية عشرة في الكنيسة.

خوانيلو الشاحب الوجه والعصبي، يظهر في الباب. ينظر إلى الوراء كأنّما يخشى أن يتبعه أحد. يدخل مخفياً تحت ذراعه صرّة مغطاة بأوراق العنب. ينادي بصوت عالٍ ثلاث مرات، وينظر حابساً نفسه.

خوانيلو: ليونيلا!... ليونيلا!... (يهدأ لمارأى نفسه وحيداً. ويضع الصرة ويهرع لإغلاق الباب والنافذة. ثم يبحث عن مكان يخبّئها فيه. يضعها أولاً في الصندوق. لايبدو له مكاناً مأموناً. يخرجها مرة أخرى ويضعها في الفرن. ينتابه الشك ويخرجها من جديد وينظر في كل الاتجاهات باحثاً عن مخبأ آخر. يُسمع نداء عند الباب. يهرع خوانيلو مذعوراً، لإخفاء كنزه بين أكياس وهو يجيب. دقات أجراس الكنيسة البطيئة ملأت فترة الصمت الطويلة. يُسمع النداء مرة أخرى، وقد ازداد قوّة.) حاضر! حاضر!

صوت برونو : آه، من هذا البيت!

خوانيلو : حاضر! حاضر! . . . (يفتح، يدخل برونو وهو فلاح عجوز، يعلّق في إحدى كتفيه البندقية وحقيبة صيد، وفي الكتف الآخرى شبكة.)

برونو : هذه نكتة كبيرة! منذ متى يُغلق باب فقير ويُقفل بالمفتاح؟

خوانيلو : لعل ليونيلا قفلته لما خرجت.

برونو : أقسم بسان فبريشيو، لا علاقة لها بذلك. أتخرج زوجك وتترك البيت مقفولاً من الداخل؟

خوانيلو : لعل القفل انزلق.

برونو : هكذا لوحده؟ وبقفلتين؟

خوانيلو : ربما قفلته أنا دون وعي.

برونو : ولِمَ؟ هل ارتكبت جريمة؟ إذ لا خوف من اللصوص أبداً.

خوانيلو : كفى، يا أبي! ليأخذني الشيطان إنْ كنت في وعيي سواء قفلت أم لم أقفل ولنقف بالأمر هنا. (يهرب من نظرته.) أجئت من صيد البر أم النهر؟

برونو : من الاثنين معاً. لما كنت في مثل سنّك، كنت أخرج

حاملاً البندقية، فاصطاد سمكة تروتشا. وإذا حملت الشبكة، كنت أقنص أرنباً برياً. والآن صرت شيخاً عجوزاً، وألعب بالاثنين معاً لأعثر على شيء.

خوانيلو: ألم تصطد شيئاً؟

برونو: بلى! شيئان: هذا الأرنب بين الخلنج، وهو ينادي صارخاً أن يطبخ بالأرز. ومن النهر، هذه السمكة التي سيكون فيها ثلاثة أرطال من السكباج. مع خبز جيد ونصف ليتر لكل فرد، سيكون غدنا أمراً آخر. (يريه الأرنب.) ماذا تقول لي عن هذه العيّنة؟ ولا ابنة أخ الخوري في استدارتها وسمنها.

خوانيلو: (شارد الذهن.) ليست سيئة.

برونو: أنت مقتصد في الكلمات ولونك متغير. هل أنت على مايُرام؟

خوانيلو: لاأعاني شيئاً... إنها الحرارة... كأس أخرى؟

برونو: لِمَ تقول كأس أخرى، إن كانت هي الأولى؟

خوانيلو: هكذا خطر لي. (يصبّ. تدندن الزجاجة مرتطمة بحوافّ الكأس.) إلى ماتنظر بإمعان؟

برونو: إلى عروق نبضك.

خوانيلو : أليست قوية؟

برونو : لوكنتَ شمّاساً، لكنت صالحاً لدقّ الأجراس. (يشرب، تاركاً الكلمات تسقط بينما يتأمله.) ألم تذهب إلى كرم العنب؟

خوانيلو : كنت هناك.

برونو : لكنك عدت سريعاً.

خوانيلو : ما احتجت إلى وقت آخر.

برونو : (يبادر فوراً إلى لهجة حميمة.) ماذا جرى لك؟ ومتى؟ في الذهاب أم في الإياب؟

خوانيلو : أنت كثير السؤال اليوم يا أبي.

برونو : وأنت بخيل جداً بالجواب، يابني.

خوانيلو : ذلك بأن رأسي في مكان آخر.

برونو : ربما! (يشربان في صمت. يجلس خوانيلو مفكراً. يربّت الأب على جانبه بحنان ويجلس إلى جانبه.) هيّا، يابُني! أطلق هذه الكلمة مرة واحدة. ماذا حدث لك هذا الصباح؟

خوانيليو : أبي!

برونو : كما أرى، شيء خطير.

خوانيلو: خطير، حتى أني لاأعرف إن كنت، منذ الساعة العاشرة صباحاً، أسعد رجل في الدنيا. أو أن أسعى هذه الليلة لأشنق نفسي على شجرة.

برونو: أبعد الله عنك أفكار السوء! ماذا حدث لك هذا الصباح؟

خوانيلو: نهضت عند طلوع الفجر كالعادة. وذهبت لتحضين الكرمة. ربما كانت الساعة الخامسة.

برونو: بحياتك، يافتى، اترك الساعة الخامسة، وقل لي ماحدث في العاشرة؟

خوانيلو: كانت ساعة الكنيسة تدق العاشرة حين اصطدمت الفأس فجأة بشيء قاسٍ. أهو حجر؟ نعم، نعم، إنه حجر. . . ضربة أخرى، فرأيت شيئاً يلمع. أهو زجاج؟ نعم، نعم، إنه زجاج! . . . نظرت وأعدت النظر، وانحنيت ونبشت التراب ولمست وأعدت النظر. . . ويارب الأرباب! وظننت أنني سقطت ميتاً مكاني. لايمكن أن يكون! نعم يمكن أن يكون! . . وكان، ياأبي! كان!

برونو: كان!

خوانيلو : كان!

برونو : ماذا كان، يالعين؟

خوانيلو : كان كنزاً، صندوقاً مملوءاً بالجواهر والنقود الذهبية!

برونو : تقدّس سان أنطون! إذاً، سقطتْ عليك ثروة من السماء، وتريدأن تعلّق نفسك على شجرة؟

خوانيلو : لم أردْ ذلك في اللحظة الأولى، وإنما تخيّلت نفسي كما ينبغي، في بيت ذي شرفات تطل على النهر، ومائدة كبيرة عليها أغطية وحولها مدعوون، وحصان عليه قطيفة حمراء من أجل عيد سان غوندولفو. لكن، سرعان ما انهارت أمجادي وأحلامي وبدأت هواجسي.

برونو : لستَ مخطئاً في هذا. لأن ثروة يُعثر عليها، تتطلب كتماناً وسراً. مالٌ في بيت فقير وحبٌ في عيني شاب غرير، سرعان ما ينفضحان.

خوانيلو : هذا ما أقصده. لوظل الأمر فيما بيننا، نحن الاثنين، لما اهتممت بشيء. لكن، ماذا سيكون أمري حين يعرف به كل الناس؟

برونو : ولماذا يجب أن يعرفه الناس؟ أرآك أحد تحمل الصندوق؟

خوانيلو : لم يرني أحد.

برونو : إذاً . . . ؟

خوانيلو : لكن، أكنتُ حقاً الشخصَ الوحيد وراء باب البيت؟ أنت تعرف زوجتي خير معرفة : طويلة اللسان كظل صنوبرة في المساء . إذا عرفتْه هي فكأنما عرفته القرية كلها . الأمر واحد .

برونو : لكنها ستسكت هذه المرة . قل لها إنها مسألة حياة أوموت .

خوانيلو : ذلك كأنك ترتل قداساً . سرٌّ في فمها كالماء في الغربال .

برونو : ارجُها راكعاً .

خوانيلو : ستضحك مني واقفة .

برونو : خِطْ فمها .

خوانيلو : ستحكيه بالإشارات .

برونو : اضربها .

خوانيلو : هي أقوى مني .

برونو : لكن، إذا كنت لاتقدر على زوجك، فلايوجد إلاحل

آخر، وهو أول ماكان ينبغي لك التفكير فيه. لاتطلعها عليه أبداً.

خوانيلو: والأنف؟

برونو: أيّ أنف؟

خوانيلو: ستشمّ رائحته من بعيد. خنتُها مرة واحدة في حياتي مع الخبّازة. وما إن وصلت البيت حتى عرفتْ عن طريق الشم.

برونو: اطمر الصندوق في المستودع.

خوانيلو: لها عينا عرّاف «مظهرّ»[1].

برونو: اقلع عينيها!

خوانيلو: لها شمعة على كل إصبع.

برونو: اقتلها مرة واحدة.

خوانيلو: هذا هو الرأي السليم. لامخرج لنا غير ذلك، ياأبي: حبل وشجرة.. حبل وشجرة.

برونو: اهدأ، يابني، اهدأ. لنفترض الأسوأ، وهو أن تعرف

---

(١) في النص (Zahori) ظهوري - من مصدر عربي. لكن المعاجم العربية لاتعطي المعنى المعروف في الإسبانية وهو: (من يعرف - حسب المعتقد الشعبي - مسارب الماء، وعروق المعدن والأشياء المخبوءة تحت الأرض.) نجد في لسان العرب الظَّهْر: ماغاب عنك. (المترجم).

امرأتك السر وتذيعه بين الناس . فماذا يمكن أن يحدث
لك في نهاية الأمر؟

خوانيلو : أوتسألني أنت ذلك؟ آه، ياأبي، ماأقل معرفتك
بالناس على كبر سنّك! أول الغيث: سيقيم عليّ
صاحب الأرض دعوى، لأني أضع يدي على الأرض
بالإيجار. وسينبش الجيران الأرض طمعاً بوجود
صناديق أُخَر فيتلفون المحصول. وسيطلب الأصدقاء
مني إقراضهم. وسيمتنع المدينون عن الدفع،
وسيطالبني الدائنون بديونهم. في أثناء ذلك، يرفع
الكاتب بالعدل عريضة، وسيملأ الكاتب البيت بالحبر،
ويفرغ دنان الخمر. أرض فيها كنز؟ مزيد من
الضرائب. كلمة واحدة تفلت منك، تُفتح لك إضبارة
جديدة . ثم طَلَب استدعاء يدخل، وحكم يخرج. . .
دعاوى لانهاية لها وحجز عليك حتى تجيب عليها،
ومحضرون يأتون وشهود يمضون.

برونو : لايهم، ولو دامت الدعوى مائة عام فسوف تربحها.

خوانيلو : وماالفائدة من ذلك؟ ستكون القسمة
هكذا: النصف لمالك الأرض. والثلث لمصلحة

الضرائب. والخمس للملك. والعشر للدير. . . عداك
عن الرسوم والسمسرة. ومابقي، إن بقي شيء،
يذهب تسديداً للأكلاف. هذا إن لم يحدث الأسوأ.

برونو: أيوجد بعد هذا سوء؟

خوانيلو: قد يجد بعضهم القسمة ضئيلة، ويتهمني
بالإخفاء. انتهاك الحق العام؟ إذاً، دعوى جنائية. فإنِ
اعترفتُ، فالسجن. وإن لم أعترف، فالتعذيب. وفوق
ذلك، سيقرر الخبراء إن كان الكنز من متروكات العرب
أو اليهود أو الوثنيين، فأطرد من الكنيسة. اجمع
واطرح: الدفاع سيقول إني بريء، ويقبض، وموظف
الضرائب سيقول إني مذنب، ويقبض. والأسقف
سيقبض دون أن يقول شيئاً. آه، ياأبي، ياحبّة روحي،
لهذا الشراء الذي جلبه لي هذا الكنز! هذا، إن لم
يكلفني فوق ذلك شرفي.

برونو: كفى، بحق الله، كفاك حماقات!

خوانيلو: أقسم لك، هذي هي الحقيقة. ألاتسمع خطا؟ من
هناك؟ (ذاهلاً.) لايوجد أحد في البيت. . .
لاأحد! . . لاأحد! . . .

برونو : خوانيلو!

خوانيلو : أنا لم أذهب إلى الحقل! ولاأعرف شيئاً! . . .

برونو : كفاك، أقول! اهدأ! (يسيطر عليه بالقوة، ويركله ركلة. يتراجع خوانيلو ويهدأ.) عفواً!

خوانيلو : لاتهتم ياأبي . . . وشكراً.

برونو : أتعلم ماأقوله لك يابني؟ من أجل مصلحتك، خذ هذا الصندوق اللعين فوراً، واطمره مرة أخرى حيث كان، فتحصل على راحة البال في البيت والثراء فيما بعد.

خوانيلو : أتخلّى عن كنزي؟ أولاً، عليهم أن ينتزعوا أظافري مني. يجب التفكير في شيء ماقبل وصول زوجي. (يسمعها تغنّي مقتربة.) وفوراً. هاقد وصلت!

برونو : أوتركت فيّ عقلاً لأفكر في شيء؟

خوانيلو : هاتِ فكرة واحدة، ياأبي! مائة إسكودو ذهبية ثمن فكرة واحدة!

برونو : إليكَ عني أنت ومالك! لم يبق من أعوام فقري غير القليل. وبهذا الأرنب وهذه السمكة، لديّ مايكفيني ليومي هذا. (يتأهب للخروج. يردّد خوانيلو كأنه ممسوس.)

خوانيلو : أرنب بري، وسمكة تروتشا . . . تروتشا، وأرنب . . . أرنب - سمكة . . . سمكة - أرنب - سمكة . (يطلق صيحة فرح . يعانقه ويقفز كالغزال .) شكراً، ياأبتِ! هي لك المائة إسكودو!

برونو : ماذا تعني بذلك؟

خوانيلو : لقد نجونا . هيا أسرع لنبدّل مكانيهما : الأرنب في الشبكة، والسمكة في الحقيبة . . . اسرع!

برونو : ويلك! أفقدت عقلك؟

خوانيلو : أبداً! لم أكن صاحياً كما أنا الآن . دعني وحيداً معها . وأنت، الزم الصمت بحق الله، الزم الصمت! (يخرج برونو ذاهلاً . يرسم خوانيلو شارة الصليب بسرعةويجلس قرب المدفأةفي وضع من يفكر عميقاً . تدخل ليونيلا حاملة سلة كبيرة مملوءة بالثياب، وتأخذ بالاستعداد لتبييضها دون أن تستريح لحظة . الحركة والشتم طريقتاها المألوفتان في التعبير .)

ليونيلا : ماأسوأ هذا العمر، يازوجي! أنت تقضي وقتك جالساً على السلم مثل سنان آلكسي . صدق من قال : من يولد مدوّراً، لن يموت مربعاً . لو اتبّعتُ

نصائح أمي بدلاً من انقيادي إلى هواي، لما رأيتني، كما تراني الآن، أغسل ثياب الآخرين لأصلح ثيابي. وأية ثياب، ياإلَهي! قذرة قذارة، وبائسة بؤساً، وخالية من كل ذوق. انظروا ملاحف العمدة، فيها نوافذ أكثر من نوافذ البلدية يوم العيد. أما قمصان أمينة المكتبة، فيمكنها أن توفّر على صاحبتها قطع المخمل لتستر عورتها على شكل أفضل، وعورات أهل بيتها. نعم! أنا أقصد ابنة أخيها التي أصيبت بالإغماء هذا الصباح عند النبع. هي تقول إن بطنها فارغ، وأنا لايدهشني العكس. فلونها صار شاحباً مذ مرت بالقرية قطعة من الجيش. وهاقد مضى على ذلك سبعة شهور. انتظر شهرين آخرين. حينئذ سيذوب الثلج ويظهر المرج. هذا إن ظهر! كثير من الهدايا... وكثير من إبداء الضعف والدلال.. «ويامـا تحت السواهي دواهي»! وهذة التنّورات؟ ألا تبدو كخُمُر الأرامل أو ملابس رجال الدين؟ إذاً، هي بناطيل سيمونيتو البيْض. وبعد كل شيء، لست أدري ممايشكو هذه الشكوى: إذا كانت الصاعقة ضربت بقرته، فقد

وضعت زوجه توأمين. وهذا بدل ذلك. من بيت «الكنّات السبع»، لاأريد أن آخذ ثياباً. لأنهن قد يكن مصابات بالجدري الأسود. وسأكون مجنونة لودخلت جحيماً كهذا الجحيم. يالبيت العقارب! الكبرى، عضّها كلب. ومن يدري إن كان مسعوراً؟ أقصد الكلب. إيه! أنا أتحدث إليك يازوجي. هل أصبت بالخرس، أم تراني قليلة الشأن حتى لاتجود عليّ بكلمة؟

خوانيلو: (بصلف.) لاتزعجيني الآن. لديّ أشياء هامّة ينبغي لي أن أفكّر فيها.

ليونيلا: إذاً، فكر ياولد، فكر، خاصة فكر قاعداً وبذلك تتحسّن أحوالنا. آسونتا كانت خادماً في بيتنا، وهاهي تضع اليوم على رأسها الحرير المطرّز؛ وسَنْدرا صاحبة الفندق التي بدأت حياتها بغسل الأطباق، اشترت كرم زيتون. . . وأنا ولدت سيدة حرة كريمة، أغسل الآن ثيابهما! وعشْ رجباً تَرَ عجباً. لكن، مماأشكو إن كنت سعيت إلى ذلك بقدميّ! طلبني أربعة خطاب أغنياء، لكنني اخترت الفقير بينهم. وانظروا بماذا

يجـازيني. يظل نهـار ه كلّه قـاعـداً ويقـضي الليل نائمـاً. ليـتني أراك قـاعـداً في قـاع الجـحـيم إلى أبد الآبدين، آمين!

خوانيلو : لاتجـدّفي ياامـرأة، خـاصـة في يوم كـهـذا اليـوم! لوعلمتِ ماجرى لي في الصباح لتركتِ الكلام وركعتِ على ركبتيك.

ليونيلا : ألك جرى شيء؟ ألك؟ هو وإنْ جـاء متـأخـراً، لكنه أفـضل من أن لايجيء أبداً. لابأس! ومـاذا جـرى، إن كان بإمكاني معرفته؟

خوانيلو : مـاكنت أفكر في أن أقـول لك. لكنه يثـقل على ضميري كثيراً.

ليونيلا : (تترك عملها مبدية اهتمامها.) وهذا ماكنت أحتاج إليـه! لأنك صـرت فـجـأة تملك شـيـئـاً يمكنك أن تحكيـه. كنت تفكر في أن تحـتـفظ به لنفـسك؟ تكلم، بارك الله لك، تكلم.

خوانيلو : أغلقي الباب والنافذة. فإنْ سمعنا أحد، هلكنا.

ليونيلا : (تغلق، وتبدّل لهجتها قلقة.) أخطير هذا الشيء؟

خوانيلو : خطير حتى ترتجف أعضائي كلما ذكرته.

ليونيلا : لاتخفني يازوجي . صدام سيء؟ كنت أتخيّله . لا؟ أهي سرقة؟ كان يشكني قلبي . ولاهذه؟ أهو الموت؟ نعم، لابد من أن يكون . آي، ياللأرملة الفقيرة! آي، ياللأطفال الأيتام . . . وهذه الأم! هذه الأم! . . .

خوانيلو : أية أم؟

ليونيلا : أم الميت .

خوانيلو : أي ميت؟

ليونيلا : ألم يُقتل؟

خوانيلو : ليتك تسكتين مرة واحدة . لاسرقة، ولادم ولاميت . ماجرى لي كان معجزة . بقول آخر : ثلاث، ثلاث معجزات توالت أمام هاتين العينين الخاطئتين .

ليونيلا : يا الله! أتريد أن تسخر مني؟

خوانيلو : أقسم على خلاص روحي . ألست مؤمنة ياليونيلا؟

ليونيلا : أنا من صلْب مسيحيين مؤمنين أباً عن جد .

خوانيلو : إذاً، صلّبي ثلاث مرات . وهيّئي نفسك لسماع مالم تتخيّليه أبداً .

ليونيلا : بحياتك، نفد صبري . قلها مرة واحدة . (تجلس قربه متشوّقة .)

خوانيلو : على مهلك! سأقول. نهضت هذا الصباح باكراً للذهاب إلى الكرمة. ووضعت الشبكة على هذي الكتف، والبندقية على الكتف الأخرى. لأن المكان بعيد، ويُخشى أن أفاجأ بشيء في الطريق. وصلت النهر، ورأيت ظلا يتحرك في الماء وألقيت الشبكة. ماذا تظنّين أني اصطدت؟

ليونيلا : سمكة تروتشا.

خوانيلو : بل أرنب.

ليونيلا : عجيب! أيعقل ذلك؟

خوانيلو : هذا مافكرت فيه في البداية: أهو معقول؟ نظرت وأعدت النظر مرة أخرى. لايوجد أدنى شك: أرنب بري.

ليونيلا : يامريم أم المسيح! ألست سكراناً ياخوانيلو؟

خوانيلو : ذهني أصفى من الفجر. وتخيلي كيف كنت حينئذ: لو جُرحت لما خرجت مني نقطة دم. تابعت طريقي دون أن أعرف فيما أفكر. وصلت الغابة ورأيت شيئاً يجري بين الأدغال. سدّدت بالبندقية وأطلقت... وماذا تظنّين أني قتلت؟

ليونلا : أرنباً آخر .

خوانيلو : بل سمكة .

ليونيلا : ياأرواح المطهّر ! أسمكة في الغابة؟ ألست حالماً؟

خوانيلو : أيبدو على وجهي أني حالم . ألا ترين أني أرتجف كغصن أخضر؟

ليونيلا : إذاً، هي ياخوانيلو، إذاً . . . هي علامة من السماء!

خوانيلو : هذا عين ماأفكر فيه . «اركع أيها البائس، فيد الله فوق رأسك!» وسقطت على ركبتي وأنا أصلي«أنا الخاطئ»، وسجدت على الأرض، لما رأيت فجأة أمام عيني شيئاً يلمع .

ليونيلا : سيف من نار!

خوانيلو : بل كنز، ياليونيلا! كنز مملوء بالجواهر والنقود الطنّانة الرنّانة .

ليونيلا : (تقف بقفزة واحدة شاحبة، مرتجفة .) آه! لا! لا! لا! ثم لا! مسألة الأرنب قبلناها . وأمر السمكة . . . رضينا به . لكن، الكنز! أتريد أن تقتلني بالصرع . ألا تخدعني حقاً؟

خوانيلو : أتريدين براهين ياامرأة ضعيفة الأيمان؟ (بينا يبحث

عن صندوقـه .) انظري إلى هذه الشـبكة : مـاذاترين فيها؟

ليونيلا : عمياء أنا ، لولم أقل أرنب !

خوانيلو : انظري الآن إلى حقيبة الصيد . ماذا ترين؟

ليونيلا : ميتة أنا ، إن لم تكن سمكة تروتشا .

خوانيلو : (يقلب صندوقه فوق المنضدة .) وهذه؟ أهي أحلام سكران هذه؟

ليونيلا : (مبهورة) ذهب . جواهر . عقود! آي ، ياخوانيلو ، صرت مجنونة من الفرح . كنت أقول دائماً ليس في العالم من أوله إلى آخره ، رجل مثل زوجي!

خوانيلو : اهدئي ، يازوجي ، اهدئي! خفّضي صوتك . اقسمي لي بأغلى ماتحبّين أن أحداً لن يعرف كلمة مماجرى هنا ، مهما حدث . اقسمي على ذلك .

ليونيلا : أقسم بذكرى أمي ، لن أقول كلمة واحدة ، ولو بعد مائة عام ، آمين! (تقلب الكنز براحتيها كأنه قمح .) آه! ماأجمل لونه الأشقر كالتُرّنج! آه ، ماأحلى رنينه كرنين أجراس الشكر! ذهب ، ذهب ، ذهب . (يسمع دقّ المطرقة على الباب) .

خوانيلو : اللهم حفظك وحماك! أيكون الناس قد سمعوا؟

ليونيلا : (تجمع قطع الكنز بسرعة.) أسرع وادفنه في القبو. واقفل عليه بسبعة أقفال، واجلس فوقه! إذا كان هناك خطر، فلن يمروا من هنا! أسرع! (تزداد دقات المطرقة وأصوات جاراتها وهن ينادينها).

أصوات : ليونيلا! ليونيلا!... (يخرج خوانيلو حاملاً الصندوق. تتماسك ليونيلا بجهد، وتتنفّس بعمق.) ألا يوجد أحد في هذا البيت؟ ليونيلا!

ليونيلا : آتية! آتية! (تفتح. تدخل آسونتا، وسندرا وليسيتا حاملات سلالاً كبيرة من الثياب.) صباح الخير، ياجارات. لماذا هذا الدقّ العنيف على بيوت الآخرين؟

آسونتا : لما تأخّرت في فتح...

سَنْدرا : أكنت تنامين القيلولة؟

ليونيلا : هي فعلاً، أوقات طيّبة للنوم. أراكنّ تحملن أغراضاً كثيرة. مؤكد أنها ليست هدايا.

أسونتا : العمل خير هدية تقدّم للفقير. جئت أنا بأربعة قمصان وثماني ملاحف. اغسليها بعناية فهي من نسيج برتغالي.

ليونيلا : يمكنك أن توفّري على نفسك النصيحة . أم تظنينّني لاأعرف ماهي الملاحف الكتانية ، وأنا التي ولدت بين الشفوف؟

سندرا : وأنا جئت بطقمي غيار كاملين وغطاء كبير من أجل العيد .

ليونيلا : من نسيج برتغالي . أليس كذلك؟ ماركة مادابولان ، وشكراً .

ليسيتا : وأنا جئت بجهاز ابنتي بيتروكا . يحتاج إلى نقع وكوي فقط . أيكون جاهزاً يوم الأحد؟

ليونيلا : (متردّدة .) سنرى .

ليسيتا : كيف سنرى؟ يجب أن يكون . . .

ليونيلا : صبراً ، ياابنتي . إن لم يكن هذا الأحد ، فالأحد الذي يليه ، وإلا فأحد الشعانين .

ليسيتا : لكن موعد العرس لايمكن أن ينتظر .

ليونيلا : وماذا يعنيني أنا؟ وهل أنا الخطيبة أم العرّابة؟ أوتذكرتّني حتى وجّهتِ إليّ دعوة؟

ليسيتا : الحقيقة ، لم أفكر في ذلك .

ليونيلا : بالطبع . الفقراء للقيام على خدمة المائدة ، أما أن

يجلسوا إليها فليس من حقهم .

أسونتا : لكن، أيّ شرّ مباغت ركبك ياامرأة حتى تغضبي من كل شيء؟

ليونيلا : سئمت من أكون الأخيرة . من أن يدفعني الجميع . ليونيلا المسكينة، إلى النهر . ليونيلا، إلى الطاحون . ليونيلا، إلى الفرن . . انتهت ليونيلا الفقيرة! أتسمعين؟ سيدة وُلدت، وسيادتي تعود إليّ . ومن لم يعجبه ذلك فلينطح الحائط .

سندرا : أنت دائماً وجنون العظمة!

ليونيلا : جنون، إيه؟ هي حقائق كقبضة اليد . أترين هاتين اليدين اللتين أكلهما الماء؟ ستصبحان كالعاج، أوكيدي ربّة دير . سترينهما مزدانتين بالخواتم، أكثر ممافي يدي ملكة نابولي .

آسونتا : أتنتظرين معجزة؟

ليونيلا : ولم لا؟ ألم تكوني أنت نفسك خادماً في بيت أمي؟ وها أنت تشترين مركعاً من المخمل من أجل القداس الكبير؟ ألم تبدئي في جلي الصحون، واليوم صار عندك كرم زيتون؟

سندرا : لم يهدنيه أحد . وإنما هو من تعب زوجي .

ليونيلا : زوجك! زوجك! طريقة جميلة لملء الفم بكلمة ، وكأنك الوحيدة التي تزوجت في الكنيسة . وأي شيء لدى زوجك ، ليس عند زوجي منه؟ هل اصطاد زوجك ذات مرة ، أرنباً في النهر؟

سندرا : أرنب في النهر؟ هذا شيء عجيب!

ليونيلا : لكن زوجي فعل ذلك . انظري إلى هذي الشبكة .

الثلاث معاً : (ضاحكات .) أرنب في النهر . . . أرنب في النهر!

ليسيتا : لكن ، من أين جئت ، ليونيلا ، بهذه النكتة؟

ليونيلا : لاشيء من النكات . وزوجك أنت؟ هل اصطاد ذات مرة سمكة في الغابة؟

ليسيتا : يقيناً ، لا .

ليونيلا : لكن زوجي فعل . انظري إليها في هذه الحقيبة .

الثلاث : (وهن يضحكن .) سمكة في الغابة . . سمكة تروتشا في الغابة! . . .

آسونتا : باسم الله ألف مرة . . . أتتكلّمين بجدّ ، ياجارة؟

ليونيلا : وليت ذلك فقط . لكن الأعظم جاء بعد ذلك : " اركع

أيهـا البـائس، يد الله فـوق رأسك" . فـجـأة، ظهـرت المعـجـزة المبـاركـة . هل سـجـد زوجك ذات مرة ليـقـبل الأرض، وعثر على الكنز أمام عينيه؟

سندرا : كنز! وفي وسط الحقل!

ليونيلا : (منتشية .)لكن زوجي عثر . نعم، عثر على كنز!

ليستا : أطار العقل منك؟

أسونتا : لاتعارضيها وإلا سيكون وضعها أسوأ!

ليونيلا : صندوق من حديد . . . تلال من الذهب . . . سلال وجـواهر وأسـاور . . . ومـاذا يسـاوي الآن زيتـونك، ومركع المخمل في القداس؟ ألم يقولوا : من يضحك أخيـراً، يضحك كثيـراً؟ إذاً، انظرن، كم تضحك الأخيرة! (تضحك مقهقهة وعصبية . تتراجع جاراتها خـائفـات .) مـالكنّ؟ لماذا تنظرن إليّ هكذا؟ أنتنّ لاتصدقنني، أليس كذلك؟

سندرا : ولِمَ لا، يا امرأة إذا كان كل ماتقولينه طبيعياً جداً؟

آسونتا : استلقي، ياليونيلا . . . واستريحي . . .

ليونيلا : أترونْ براهين ملمـوسـة؟ انتظرن لحظة . سـأعـود حالاً . (تقلب السلال كلها بقدمها .) أخرجْن الجرب

الأجرب! أخرجن الصباغ الأصبغ! انتهت ليونيلا، المسكينة ليونيلا. والآن، أفسحن الطريق أمام السيدة ليونيلا الأخيرة. خا! خا! خا! الأخيرة. (تخرج منتصبة القامة وعلى وجهها ضحكة صاخبة.)

سندرا: ياآلهي! ياآلهي! من كان يفكر في ذلك؟ كانت تبدو امرأة سليمة الجسم وفي صحة جيدة.

ليسيتا: عجرفة وفقر رفيقان رديئان.

آسونتا: كنت أقول دائماً إنها ستنتهي هكذا! . هو عقاب من الله! (ترسم الثلاث شارة الصليب، وتلتقطن سلالهن مسرعات.)

سندرا: لاتتركن الثياب هنا، فربما أحرقتها. يجب أن نحكي هذه النادرة الجديدة في الساحة.

ليسيتا: وفي السوق.

أسونتا: وعند النبع. هيا! هيا! (يدخل برونو وخوانيلو وعليهما هيئة من استمع إلى الحديث.)

خوانيلو: ولِمَ هذه العجلة؟ أجرى شيء ياأخوات؟

آسونتا: لاشيء ياخوانيلو. اهتم بامرأتك. . . المسكينة أثّر فيها ضغط العمل.

سندرا : ضع لها كمادات باردة، واصنع لها حساء دجاج. ثم عليها بالراحة، راحة كبيرة.

ليسيتا : إذا احتجت شيئاً، فأنت تعرف بيوتنا. وداعاً، ياجار!

الثلاث معاً : ياالخــوانيلو المسكين! ياالليــونيــلا المسكينة!

(يخرجن وهن يصلّبن.)

برونو : الآن، نعم، أعددتها جيداً. القرية كلها ستشير إليها، والأطفال سيرجمونها بالحجارة. أتدرك ماصنعت؟

خوانيلو : (منتصراً) أعظم شيء في حياتي، ياأبي! أعظم من صيـد الأرانب في النهـر. أعظم من صيـد سمكة في غابة. استطعت أن أجعل زوجي تحفظ السر. لايوجد سـر مـحـفـوظ مـصـون خـيـر من سـر لا يؤمن به أحد. (يتمطّى سعيدا.) والآن، سأنام مطمئناً.

(ستار)



هزليّة عدالة الحاكم

«من التراث الشعبي»

الشخوص

الحاكم	خياط
السكرتير	حطاب
طباخ	حاجبان
صياد	حاج

خادم

قاعة اجتماعات فيها منصّة . باب كبير في القاع يقوم على الحراسة فيه حاجبان . ثم باب آخر مموّه يقود إلى القصر . يرئس الجلسة أي صاحب جلالة باروّكي من قشتالة .

يدخل الحاكم والسكرتير الذي يكتب محاضر الجلسات . يتحدّثان عن الخمور والأطعمة بهذا الخبث اللطيف الذي يكرسه الآخرون الأكثر حذقاً إلى أحاديث حميمة عن الحب .

السكرتير : وحقّ الله ، لاأتذكر أني تمتعت في حياتي بمأدبة كالتي أقمتَها ، وقد سار ذكرها حتى قيل لامائدة تضاهي مائدة السيد الحاكم حتى مائة فرسخ ممايحيط بنا .

الحاكم : كلّ عمرٍ له خطيئته القاتلة . في العشرين يسود التحلّل والفسق ، وفي الثلاثين تسود خطيئة الغضب ، وفي الأربعين التكبّر . وهاقد مضت عليّ خمسون عاماً ولمّا أصل إلى خطيئة الشحّ والطمع ، وهي لعنة العجائز والشيوخ . وأبارك اليوم هذه الشراهة التي تحرّرني من كثير من العيوب ، وأدين لها بكثير من الطيّبات .

السكرتير : على ذلك ، هل أفهم من قولكم ، أن الشراهة يمكن أن تكون فضيلة؟

الحاكم: دون تردّد. خلال هذه الأعوام التي قضيتها في وظيفة السكرتير، كيف بدت لك أحكامي؟

السكرتير: كل الناس يقولون إنها القمّة في الجودة والحكمة والعدالة.

الحاكم: وإلام تعزو ذلك؟

السكرتير: قبل كل شيء، إلى قلبك النبيل.

الحاكم: خطأ كبير.

السكرتير: إلى ذهنك العجيب اليَقِظ.

الحاكم: ولا هذا أيضاً، ياأخي. كل السرّ يكمن في المعدة. (وهو يصب السائل الذي جلبه أحد الخدم في زجاجة). رجل يأكل جيداً، رجل شجاع دائماً، ورجل يشرب جيداً، رجل حكيم دائماً. ويوم خطر لسليمان أن يشطر الطفل شطرين، كان يلهمه حسن هضم ممتاز. (يقدّم له كأساً، ويرفع أخرى.) بصحّة الخطيئة الجسديّة الوحيدة التي يمكنني أن أقترفها بكرامة في مثل هذي السنّ!

السكرتير: بصحة سليمان الجديد لكل الممالك الإسبانية!

الاثنان معاً: بصحّتك! (يضحكان ويتلمّظان بلسانهما العدليين).

السكرتير: أهو خمر توستادو؟

الحاكم: هذا معتّق جداً.

السكرتير: أهو سوليرا.

الحاكم: هذا حديث جداً.

السكرتير: إذاً، هو موسكاتيل؟

الحاكم: أحسنت!

السكرتير: تبارك جفنة الكرمة التي جاء منها. (يشربان ويتلمّظان مرة أخرى.) وهذا الطبق الذي أكلناه منذ قليل، ألا تستطيع أن تقولي لي، من أية معجزة جميلة صنُع؟

الحاكم: ألم تعرفه بعد؟

السكرتير: أحياناً، له طعم خنزير بري، وأحياناً له طعم طير.

الحاكم: ربما كان الشيئين معاً. فكّر في واحد منهما.

السكرتير: حمام مطوّق؟

الحاكم: قاسٍ جداً. إنه يطير بعيداً.

السكرتير: حجل؟

الحاكم: ضعيف جداً. هويطير قصيراً. فكّر فيما هو أعلى.

السكرتير: بط بري؟

الحاكم: أقل رداءة.

السكرتير: بَلَشون؟

الحاكم: أنبل منه.

السكرتير: دُرّج؟

الحاكم: أحسنت، ياسكرتير. كشفنا الآن عن نصف السر. أنكشف عن النصف الآخر؟ (يجلسان معاً وهما يتساران بودّ كامل.)

السكرتير: انتظر حتى أتذكر. له رائحة حقل أوفاكهة.

الحاكم: بداية جيّدة.

السكرتير: الطعم طعم لحم عبيط وبالصلصة، كلحم خنزير في كانون الأول.

الحاكم: اقتربت من الموضوع. لكن، وتلك الليونة البريئة كالزبدة؟

السكرتير: خنوّص، ربما؟

الحاكم: اقتربت! اقتربت! لكن، ذلك الطعم، طعم لحم حيوان مُطارد؟

السكرتير: وعل؟

الحاكم : اقتربت جداً. لكن، وذلك الطعم، طعم الزعتر البري؟

السكرتير : خنزير بري؟

الحاكم : خنّوص بري بصلصة الخوخ!

السكرتير : شكراً وحمداً لله. وماذا ينتظر العمدة حتى ينصب تمثالاً لطبّاختك؟

الحاكم : طبّاخة؟ خطأ وكفر! لوكانت طبّاختي تستطيع صنع هذه الأعجوبة لاتّخذتها زوجاً منذ زمن بعيد، كلا، يابني! النساء لصنع الأطباق البدائية كاللحم المشكّل، والبقول المجففّة، والدّجاج بالبيض. وقد تصل النابهات منهن إلى طبخ الأرنب البري بالزيتون. وفي حالات نادرة يطبخن "البائيّا". أما الطبخ الفني فهو خاص بعبقرية الرجل. وبين هؤلاء جميعاً لدينا عبقري واحد فقط.

السكرتير : العمى! لاتزدْ ياسيدي: إنه خوان بلاس الطبّاخ!

الحاكم : قل: خوان بلاس ذو اليدين الذهبيّتين.

السكرتير : الآن، فهمت كل شيء.

الحاكم : كل شيء، غير صحيح. لايزال عندي تفصيل

١

صغير. (يقترب منه. يخفّض صوته.) ألم تلمح في الطبيخ شيئاً من رائحة نافرة قليلاً، من شيء يشبه الغشّ في اللعب ، يشبه موعداً مع امرأة متزوّجة حديثاً؟

السكرتير: نعم، بالتأكيد، رائحة زنخة مقلقة.

الحاكم: آه! . . . إذاً، هي رائحة الخطيئة.

السكرتير: أية خطيئة؟

الحاكم: انظر إليّ وجهاً لوجه: ألستُ رجلاً شريفاً؟

السكرتير: أشرف القضاة وأعدلهم وأنزههم.

الحاكم: حسن جداً، ياأخي. هذا الذي أكلناه لتوّنا كان ثمرة سرقة.

السكرتير: مستحيل! سيادتك سارق؟

الحاكم: أنا خاطئ!

السكرتير: وأنا شريكك في الإثم؟ أنا أغطّي عليك من أجل ساعة من الشراهة؟

الحاكم: هذي نقطة ضعفي، وعقب آخيل عندي. ضعْني إزاء بسمة شابّة، أو دمعة أرمل، تجدْني جامداً لاأنبس. ضعْ عند قدميّ كل ذهب الدنيا فلن تراني

أحيف أو أحيد عن الحق. لكن، لاتضع أمامي خنّوصاً برياً بمرقة الفواكه لأني رجل نهم. (يرفع كأسه.) بصحة خوان بلاس الطبّاخ، حفظه الله لي إلى أبد الآبدين!

السكرتير: آمين! (يقرعان الكأسين ويشربان. يسمع في الخارج صوت طلقات، وصراخ من بعيد، وصوت خوان بلاس الذي يقبل راكضاً.)

صوت: النجدة! العون! النجدة!

حاجب: (يوقفه.) قف، مكانك!

الطباخ: سيقتلونني! الرحمة لإنسان بريء!

السكرتير: ياربّ الأرباب! أليس هذا خوان بلاس بلحمه وشحمه!

الحاكم: افتحوا له! (يتنحّى الحاجبان. يخر خوان بلاس على ركبتيه راكعاً، مرتعداً عند قدمي الحاكم.)

الطبّاخ: بحياتك، سيدي الحاكم، أنقذني! أربعة رجال يطاردونني، وهم على استعداد لسلخ جلدي.

الحاكم: وفي حضرتي؟،

الطباخ: بالغضب الذي يحملونه بين عيونهم، هم قادرون

على فعل كل شيء. (يُسمع الصخب وقد بلغ حدّ الباب.) هاهم! سأُقتل إن لم تحمني يد العدالة.

الحاكم: أسرع، ياسكرتير، وأوقف هؤلاء الناس. ولا يدخل أحد عليّ حتى آذن له. (يخرج السكرتير. يقفل البوابان الباب. يأخذ الصياح يخفت في الخارج.) اهدأ، يابنيّ! لماذا يطاردك هؤلاء؟

الطبّاخ: لأربعة أسباب لاذنب لي فيها: السرقة، والتسبّب بالإجهاض، وتحطيم أربعة أضلاع، وذيل حمار.

الحاكم: لم أسمع أبداً باجتماع أربع جنح بهذه الغرابة. فسّر لي الأمر.

الطبّاخ: أما السرقة، فأنت تعرف أمرها خيراً مني. هي ذلك الخنّوص البري الذي طلبت إليّ أن أجلبه لك هذا الصباح. تخيّل غضب الصياد حين عاد يطلبه ثم رجع صفر اليدين خائباً!

الحاكم: هذا كان متوقعاً. ألم تقل له إن الخنّوص هرب من الفرن، كما أمرتك؟

الطباخ: لم يسمح لي أن أقول شيئاً. فسرعان ماقبض على البندقية وهو يُرغي كالشيطان. ولو لم أفرّ من أمامه

لكانت سيادتك تتحدّث الآن إلى جثّة .

الحاكم : أفهم قضية الصياد ، لكن ماشأن الآخرين؟

الطباخ : سوء طالعي عقّد عليّ كل شيء . أثناء هربي من الصياد كسرت أربعة أضلاع لأحد الحجاج . هربت من الحاج فتعثرت بامرأة الخياط الحامل . فررت من الخياط فحدثت الكارثة الدموية ، وهي كارثة الحمار .

الحاكم : أية كارثة وأي حمار؟

الطباخ : حمار الحطّاب . فقد كان وسيلتي للفرار . لكن الحيوان اللعين ألقى بنفسه أرضاً . أردت أن أُنهضه بالقوّة بشدّه وجذبه من ذيله . هو يحرن وأنا أشد ، وبين هذا وذاك انملخت قطعة من ذيله . وهاهي المشاكل الأربع كأنها أربعة براكين غضبى تطلب رأسي صراخاً وعلناً . احمني ، ياسيدي !

الحاكم : اهدأ ، ياخوان بلاس ، قضيّتك صعبة . لكني رجل شكور ومقُر بالجميل . لابارك الله فيّ إن لم أنقذك . خير للمملكة أن تخسر نُصُبَها وتاريخها من أن تخسر طبّاخاً مثلك .

الطباخ : (يقبّل يديه .) شكراً ، ياسيدي ، شكراً . (يصعد

الحاكم إلى المنصة . ويقرع الجرس . يُفتح الباب .)

الحاكم : ليدخل المتخاصمون . (يدخلون بشكل جماعي وراء السكرتير : الصياد مع ريشته وبندقيته . والحاج بعكازه وأصدافه التي جلبها من سانتياغو . والخياط مع مقصه الكبير ، والحطاب مع ذيل الحمار . يقف الحاجبان مرة أخرى في الباب .)

الصياد : هاهو اللص ! أرسلوه إلى خشبة الصلب !

الخياط : هاهو قاتل الأطفال . علّقوه على المشنقة !

الحاج : أضلاعي . آي ! ياأضلاعي البائسة !

الحطاب : آه ، ياحماري العزيز ! يارفيق تعبي . انظر ، ياسيدي ، إلى هذه البقية الحزينة !

جميعاً : العدل ! ياسيدنا الحاكم !

الحاكم : (يفرض الصمت بقرع الجرس دقات خفيفة .) اسكتوا جميعاً ! ليجلس المتّهم وليجلس الخصوم . ولنستمع بعدل إلى الجانبين . (يرفع ذراعه الجليل .) باسم الأب الخ . الخ . الخ . . أتقسمون جميعاً على قول الخ . الخ . الخ . . ؟

جميعاً : نقسم !

الحاكم : تفتتح الجلسة، وليسجّل السكرتير الأقوال . (يجلس . يعود المدّعون إلى الصخب .)

الصياد : مائة جلدة لهذا اللص !

الحاج : أضلاعي ! آه، ياأضلاعي !

الخياط : الثأر لأب محزون سيء الحظ !

الحطاب : العقاب لنازع ذيول الأبرياء ! (يبكي ويقبّل بقيّة الذيل ويداعبها . يُدق الجرس دقات خفيفة .)

الحاكم : سكوت، أكرر ! أو أخلي القاعة . وليتكلّم أوّل المدّعين .

الصياد : (ينهض) أنا ياسيدي، صياد محترف . خرجت هذا الصباح باكراً إلى الجبل . وشاء لي حسن الحظّ أن اصطاد دُرّجاً وخنّوصاً برياً، وحملتهما مع رطل من الخوخ إلى فرن عدوّ الشعب هذا . وعدت بعد ثلاث ساعات لأطلب طعامي باطمئنان . أوتعرف سيادتك، بماذا طلع عليّ هذا المحتال؟ إنْ كان شجاعاً فليقل ذلك للعدالة .

الحاكم : ليجب المتهم . أين خوخ هذا الرجل؟

الطبّاخ : أكله الدُرج .

الحاكم: وأين الدرج؟

الطباخ: أكله الخنّوص البرّي.

الحاكم: والخنّوص؟

الطباخ: ما إن فتحت باب الفرن حتى شرع يركض باتجاه الجبل كالشرارة.

الصياد: متى رأيتم قولاً أقبح من هذا القول؟ إلى الكذب، يضيف الغشّ والخداع. ألا يستحقّ أن يُضرب رأسه بالعصا؟

الحاكم: اهدأ، ياصياد! بئس الرفيق الغضب! لنحكم على الأمر بصفاء: للوهلة الأولى، يمكن أن تكون الأقوال الثلاثة مشكوكاً في صحتها «واقعياً». لكنها من «ناحية المبدأ» لايمكن أن تُدحض. أيمكن لأحد أن ينكر أن الدُّرّج يأكل خوخاً؟

الصياد: لاأحد ينكره.

الحاكم: أيستطيع أحد أن ينكر أن الخنزير يأكل درّجاً؟

الصياد: ولا هذا أيضاً.

الحاكم: أيستطيع أحد أن ينكر أن الخنزير البري ينزع نحو الجبل؟

الصياد: لكن هذا مستحيل، ياسيدي الحاكم. لأن الخنزير ميّت، وميّت حقاً.

الحاكم: لاشيء مستحيل أمام إرادة الله. ميتة كانت ابنة خايرو لما قيل لها «أيتها النائمة، استيقظي!»

السكرتير: إنجيل متّى. الإصحاح التاسع. الآية ٢٥.

الحاكم: كان عازار ميتاً حق الموت لما قيل له: انهض وامشِ.

السكرتير: إنجيل يوحنا. الاصحاح الحادي عشر. الآية٤٣.

الحاكم: إيمكن أن توضع الأناجيل موضع الشك؟

الصياد: وماعلاقة القديسين يوحنا ومتى بقضيّتنا؟

الحاكم: وكيف لا؟ سجل ياسكرتير.

السكرتير: سجّلت. (يكتب بصورة سريعة جداً.)

الصياد: القضيّة تتعلّق بخوان بلاس الطبّاخ. وأؤكد أن الطبّاخ لايستطيع أن يصنع المعجزات.

الحاكم: هذا تهوّر مخيف! أليس لكل طبّاخي العالم فضيلة كفضيلة تحويل الماء إلى خمر في عرس كنعان؟ سجل.

السكرتير: إني أسجل!

الصياد: أنا لاأتحدّث عن ماء ولا خمر، وإنما عن خنزير في الفرن. ماأقوله هو أن الخنزير في الفرن ميت. وسيبقى

ميتاً إلى أبد الآبدين .

الحاكم : مـاذا تقـول ياأحـمق؟ أتسـتطيع أيضـاً أن تنكر بعث الأجساد؟ سجّلْ .

الصياد : لكن؟ سيدي الحاكم . . .

الحاكم : اسكت! أسجلّت؟

السكرتير : سجّلت .

الحاكم : اقرأ الورقة .

السكرتير : أولاً ، يعترف المدّعي أنه صياد محترف ، باحتقار واضح للوصيّة الخامسة : لاتقتلْ . ثانياً : يعلن دون حياء أنه لايأبه بالكتب المقـدّسـة ولابزواج كنعـان قـيـد شعرة . ثالثاً : يُبدي شكوكاً وظنوناً واضحة حول عقيدة بعث الأجساد . رابعاً : . . . .

الحاكم : يكفي! آسف من أجلك يابني! يُمكن أن أغـفـر لك محاولتك تلطيخ شرف أحد المواطنين وسمعته دون براهين وشهود ، حتى أنك دخلت هيكل العدل وأنت شاكّ السلاح . لكن هرطقتك الفاضحة ، لاعلاج لها إلا بتحويلها إلى محكمة التفتيش .

الصياد : مـحكمـة التـفـتـيش؟ (يخـر راكـعـاً .) رحـمـة لي ،

ياسـيـدي! أنا أرفض، وأنكر وأسحب كل كـلام قلته. إنه ذنْبي! ذنبي الأعظم!

الحاكم: ألدى المتهم أيّما اعتراض؟

الطباخ: من جهتي، يمكنه أن ينصرف سالماً. أنا أسامحه.

الصياد: شكراً ياأخي بلاس! شكراً، ياسيدي.

الحاكم: (يهز الجرس. وينهض لإصدار الحكم. يقفون جميعاً.) بالنظر إلى الصلح بين الفريقين يُعاد إلى الطبّاخ الشرف والسمعة اللذان انتُزعا منه. ويُحضر الدرّج الأوّل، والخنوص الأول اللذان اصطادهما الصياد إلى المحكمة، تعويضاً. إضافة إلى عشرين ريالاً تسديداً للنفقات. يؤخذ، يُتبل، ويقُدم. أقول: قُضي، ختُم، حفظ. (دقات جرس خفيفة مرة أخرى. يجلسون جميعاً.) فليتكلم المدّعي الثاني. (يعود الصياد إلى مقعده وينهض الحاج.)

الحاج: أنا ياسيدي، حاج بسيط كنت في طريق العودة من كومبو ستيلا. وكنت أصلّي في كنيسة صلاتي خاشعاً، حين سمعت فوقي، في الكورس، هرجاً ومرجاً وزعيقاً كمواء القطط في شهر كانون الثاني. فرفعت

بصري ظناً مني أن السماء انشقّت . وفجأة، سقط هذا الطباخ الجهنمي فوقي وحطّم أربعة أضلاعٍ من أضلاعي . فماذا سيكون حالي، وأنا شيخ عجوز؟ أطلب إنصافي، باسم السماء .

الحاكم : (للطبّاخ، وقد احمرّ وجهه غضباً .) آه! يادابّة الجحيم . أتحطم أضلاع عجوز مبارك قادم من زيارة ضريح الحواري، وهو غارق في الصلاة، وفي قلب الكنيسة؟ كيف يمكنني عقابك على جرم انتهاك الحرمات المقدّسة؟

الطباخ : أعماني، ياسيدي، الرعب فدخلت هذا المكان المقدّس باحثاً فيه عن ملجأ . وكان الصياد يطاردني على الدرَج ويده على زناد البندقية . ولم يكن لي مخرج آخر إلا أن أقفز من الشرفة . فأغمضت عيني حينئذ، و . . ثاس! من كان يستطيع أن يتخيّل أن هذا الرجل الطاهر موجود تحتي؟

الحاكم : كفى! لقد ارتكبت جرم انتهاك الحرم المقدّسة . ولابد للقانون من أن يكون صارماً . عين بعين، وضلع بضلع! اهرعْ فوراً إلى الكنيسة واركع، وصلِّ

صـلاتك. وأنت أيهـا الحـاج، اصـعـد إلى مكان الكورس، واغمض عينيك وارمِ بنفسك دون خوف، فوقه.

الحاج: لكن، سيدي الحاكم، ارتفاع الكورس سبعة أذرع!

الحاكم: ذلك خير لك. كلما كان أكثر ارتفاعاً، كان العقاب أكبر.

الحاج: وإذا أخطأت الهدف، وسقطت على البلاط؟ وإذا تحطمت أربع أضلاع أخر من أضلاعي، بدلاً من أضلاعه؟

الحاكم: عجباً، أيها الرجل ضعيف الإيمان! أوتشكّ في حكم الله؟

الحاج: كلا، ياسيدي! ليس الإيمان ماينقصني. لكنني فكرت في الأمر جيداً، فرأيت أني بأضلاعي التي لاتزال سليمة، أستطيع أن أحيا. ومن صلب الإيمان أن نتألم ونعاني ونعفو. إذا شاء سيدي الحاكم، أفضل سحب الدعوى.

الحاكم: ألدى المتهم أي اعتراض؟

الطباخ: لااعتراض لي ياسيدي.

الحاكم : في هذه الحالة . . . (يقْرع الجرس ويقفون جميعاً .) نظراً للتفاهم المشترك، وطلب المدّعي شطب الدعوى، يسمح للحاج، لهذه المرّة فقط ودون أنْ تشكّل سابقة بمتابعة سفره، ويُعفى من دفع الأكلاف والغرامات والضمان . قُضي، ختم وحُفظ . (يجلس) فليتكلم المدّعي الثالث . (يعود الحاج إلى مقعده وينهض الخياط .)

الخياط : أنا، ياسيدي، خياط . تزوّجت منذ سبع سنين، حالماً بولد أورثه مهنتي ومالي . لكن الثمرة المنتظرة لم تصل . كنا نقضي الليالي أنا وزوجي، ونحن نصلي، لكن دون جدوى . وكانت القابلات يهرعن إلى زوجي بأعشابهن ومراهمهن وصلواتهن . دون جدوى أيضاً . أخذتُ زوجي لتستحم في المياه المباركة في سان سيرينين ديل مونته، دونما فائدة . ودبّ اليأس فيّ لما حصلت المعجزة أخيراً . تصور بهجتي وفرحي! كنت أقيس محيط بطنها يوماً فيوماً . وكنت أبتهج كلما زاد بوصة واحدة وأعدّ نفسي أسعد أب بين الخيّاطين .

الحاكم : قصة مؤثرة . لكننا خلّنا في المهم . خلّنا في الموضوع .

الخياط : الموضـوع إذاً ياسـيـدي، هوأننا كنا على أهبّة الخـروج ظهـراً إلى الكنيسـة لنقـدّم الشكر إلى السمـاء، لما فُتح البـاب فـجـأة، واندفع هذا المجنون كـالإعـصـار، واصطدم بزوجي. وبين الصـدمـة والفـزع ضـاع عـملي الذي عـملته في مـدى سـبع سنين، في لحظة واحـدة. أطلب إنصافي من هذا القاتل!

الطباخ : أنا بريء! لوكنت أعلم أن زوجك خـارجـة للصـلاة، لتـمنّيت أن تنزع عيناي من أن أحـتكّ بهـا. أطلب منك العفو ياأخي الخياط.

الخيّاط : لاشيء يصـحح بالعـفـو. هذا الصـبـاح كنت امـرأً سعيداً، وهاأنا الآن صرت تعيساً. هذا الصباح، كـانت زوجي ريانة مـلآنة مـسـتـديرة كـالتـفـّاحـة. وهي الآن ضـعـيفـة، رخـوة كـالزّق. العـدل، العـدل! ياسـيـدي الحاكم.

الحاكم : آه، منك أيهـا الطبّاخ الحـقيـر! نعم، من هذه لن تنـجو أبداً. خـذ زوج هذا الرجل الطيب إلى بيتك، ولاتـهـدأ حتى تعـيدها إليه ريانة مـلآنة مستـديرة كـمـا كـانت. أسرع!

الطباخ : (ينهض بعزم) هيّا بنا!

الخياط : مكانك! إني أعترض على الحكم!

الحاكم : الاعتراض مرفوض. إن كان هذا الوضيع قد أتلف محصولك، أليس من العدل أن يعوّضك بمحصول آخر؟

الخياط : أرفض ذلك. هذا ظلم فادح!

الحاكم : أتسبّ السلطات؟ عشرون ريالاً غرامة لتحقير المحكمة. (يكتب السكرتير بشكل سريع مستهلكاً الورق.)

الخياط : لايهمني الثمن. أدفع كل ماأملك حتى أرى هذا الجبان مصلوباً على خشبة!

الحاكم : محاولة رشوة؟ أربعون ريالاً.

الخياط : (يائساً، ساعياً للاحتماء بالضمير الشعبي.) أسمعتم ياجيران؟ أيمكن السكوت على هذا الظلم؟

الحاكم : دعوى إلى التمرّد؟ ثمانون ريالاً.

الخياط : سأستأنف لدى جلالته! ولو لزم الأمر فسأذهب حتى روما!

الحاكم : تعاون مع سلطة خارجية؟ مائة وستون ريالاً. ألديك

شيء يمكن أن تضيفه؟

الخياط: (يهدأ فوراً.) لاشيء ياسيدي. وشكراً جزيلاً. أريد فقط أن أعلمكم بتواضع ودون غضب أو قصد سيء- أني أرفض كل تعويض عيني يأتي من الطبّاخ. محاصيلي أرغب في أن أزرعها بنفسي.

الحاكم: إذا كان كذلك، فيمكن أخذ ذلك بالاعتبار. أيوافق المتهم؟

الطباخ: موافق!

الحاكم: تصالحت الأطراف. (دقات جرس. ووقوف.) عشرون وأربعون وثمانون ومائة وستون تساوي ثلاثمائة ريال بالكمال والتمام. يُدفع، تقبض، توضع في الجيب. (يجلسون) ليتكلم المدّعي الرابع. (ينهض الحطاب مضطرباً، مخفياً الذيل. يتردد، ثم يشرع في الركض باتجاه الباب. يوقفه الحاجبان.) أوقفوه! إلى أين ذاهب هذا المجنون؟

الحطاب: تأخرت، ياسيدي. وعليّ أن أحمل الحطب إلى السوق.

الحاكم: انتظر، يابني. أولاً، لك علينا حق بأن نسمع إليك

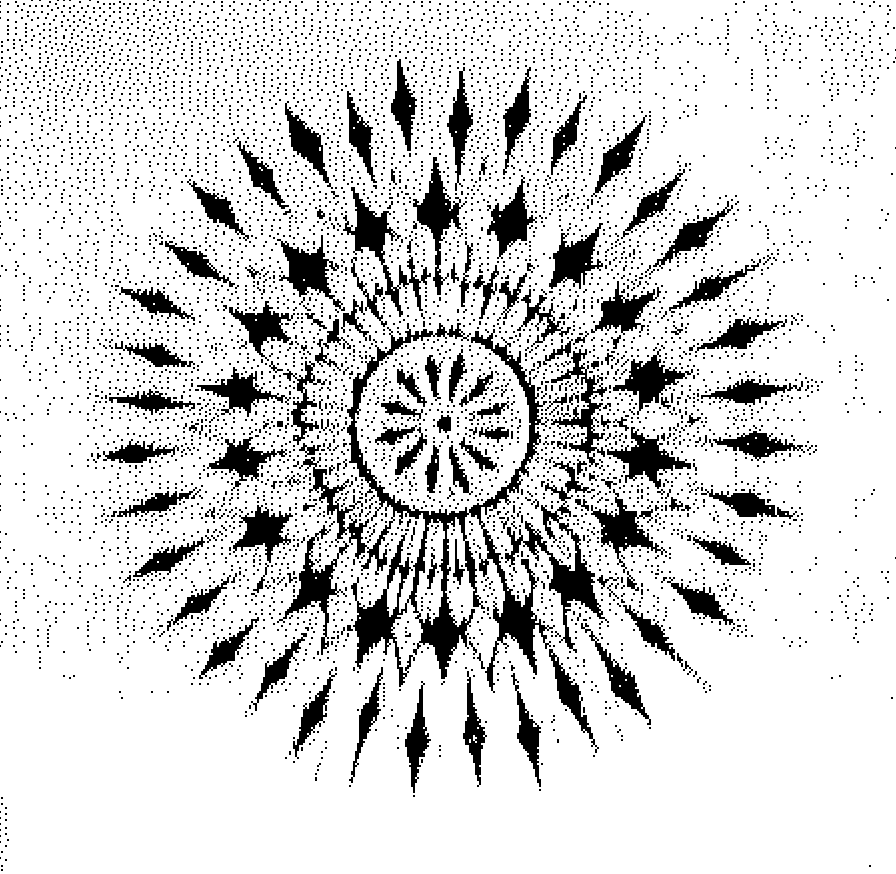
وننصفك . ألم تتقدّم بدعوى على هذا الطباخ اللعين؟

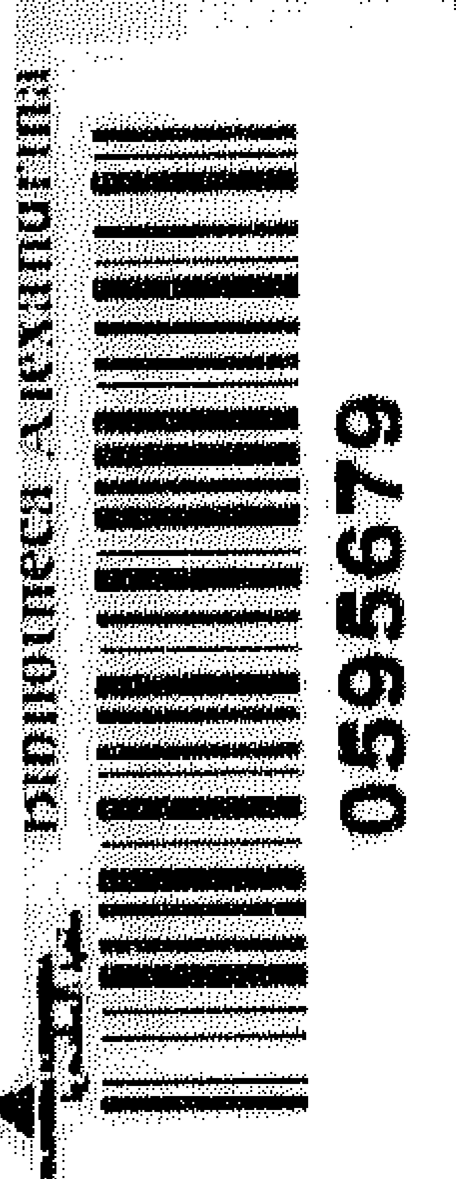
الحطاب : أأنا أقــمت دعــوى؟ لم يحــصل أبداً . وأقــسم، ثم أقـسم بكـل مـافي السـمـاء أن حـمـاري ولُد دون ذيل، وقضى حياته كلها دون ذيل . وأنه سيموت حتف أنفه دون ذيل . بالإذن من سيدي الحاكم . (يخرج راكضاً .)

* * *

الفهرس

٢٥٠٠ ط ١٩٩٩/١٢/١





الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر
١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما
٢٠٠ ل.س